
الخروج الآمن
مجموعة قصصية
كرم صابر
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل

الخروج الآمن

مجموعة قصصية

كرم صابر

الخروج الآمن

كرم صابر

الطبعة الأولى: ٢٠١٢

رقم الإيداع:٢٠١٢/٣٥٦٩

الترقيم الدولى :ISBN 978-977-5104-22-9

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

القاهرة – شارع معروف من شارع شمبليون – عمارة ج– وسط البلد

تليفون ٢٠٢٢٢٥٧٤٣٥٣٤+

البريد الالكترونى:arweqah@ arweqah.com

arweqah@hotmail.com

الموقع الإلكترونى: www. Arweqah.com

محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأى مؤسسة أروقة وتوجهها؛ بل يعبر عن رأى المؤلف .

كرم صابر: أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة ، وبدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩ ؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها المتهم وأين الله ورائحة الأنوثة وعشق الحياة وفؤاد المدينة وطائر النسيان ومريم العذراء وكلاب السكك.

طبعة إليكترونية : ٢٠١٥

إلى شهداء ملاحم محمد محمود وماسبيرو والقصر العيني

"اغتالتهم مجنزرات ورصاصات العسكر ليضمنو للسفلة المجرمين الخروج"

"إجازة سعيدة"

الساعة التاسعة ، الدنيا مازالت نائمة ، القهوة لا يوجد بها زبائن ، المحلات مغلقة ماعدا الفوال والخضري.

بالأمس قالت زوجتى إنَّ امرأة محجبة قابلتها في السوق وسبتها أمام الجميع وصرخت فيها:"أنت ولية مش محترمة"؛ لأنها لا تلبس الحجاب.

أكدت أن الرجال في السوق لم يتدخلوا وكأن النخوة ضاعت ، قلت : هل تعرفينها ، أجابت : كانت تلبس خماراً.

مازالت بنتي تتهرب من المذاكرة ، تلعب على الكمبيوتر ألعابًا لا أفهم سرها ، يتحدث مع أصدقاء تعرفت عليهم من"الشات" ، أسمعها تحدثهم بجرأة ، عن ملابس أمها وخبايا عملي ، وتضحك مختلسة البهجة.

يبحث ابني بعينيه عن المستقبل ، دخل الجامعة بعد فشله في اختبارات معهد السينما ، لم أجد واسطة تؤهله ليدرس الإخراج ، كلما شاهدني نظر إلى جبيني بعينين مكسورتين ، كأنه يعايرني بأن أمي ليست"رقاصة".

استلم تليفوني رسالة غاضبة من صديقتي"لن أتحدث بالنيابة عنك مرة ثانية ، اعتذر أنت بنفسك" ، كانت ترد على رسالتي لعدم حضوري اللقاء المشترك بينهم لإيجاد الحلول لمشاكل نقابتهم ، كانوا يتصارعون على منصب الرئيس ، تركوا مهمتهم في تحسين حياتهم وتفرغوا للصراع على الكرسي.

صباح اليوم صحت زوجتى من النوم ، نظرت إلى الأطباق والحلل بحوض المطبخ واندهشت ، نظرت إلى الملابس المتراكمة بالحمام ، فصرخت في ابني ليفيق من أوهامه ، خرجت للصالة ، داست على الأطباق وبقايا الطعام وقشر اللب ، هربت لحجرتها ، وقابلتها أكوام التراب فوق السرير ، نظرت إلى أرضيات الشقة، سبت ابنتي الرقيقة بصوت عالٍ ، أيقظتها من النوم وصرخت: يا بنت الكلب، كيف سأفعل كل ذلك وحدى؟

اليوم موعد مقابلاتي مع إخوتي ، قررت التخلي عنهم والتفرغ لنزواتي ، سأقابلهم لأواسيهم ، سيبكون على اختياراتي ويقولون: لا تبتعد عنا ، نحن أهم لك من حياتك ، سآكل معهم ولن أظهر أية انطباعات ، سأطبطب على ظهورهم ملطفا الأجواء ، سأهرب آخر اليوم كعادتي.

سأختلي بنفسي على المقهى ، أشرب حجرين والليل يرخى ظلامه وأنواره على الحي.

ستعاودني ذكرى الأصدقاء ، وندى الصبح والبراح الذى طلقنا وهرب للبلاد البعيدة.

سيمر عمُّ"عبد الله" أمامي ماسكاً سلة الرزق المملوء بالسوداني واللب ، سيقترب منى ويقول: عامل إيه يا أستاذ؟ أعطيه ما فيه النصيب ، يسلمني أكياس التسالي ، ويدعو لي بطول العمر وراحة البال ، وينادى على بضاعته"المقشر"ليلتفت الناس إليه وهم يتسامرون ويلقون على الأرض البقايا.

إنه بالفعل يوم الجمعة ، الإجازة التي أرتاح فيها من الغليان الذى تمر به هذه البلاد.

"سبعون جنيهًا"

حين يؤذن العصر سيحصل على يوميته كاملة ، ويستكمل المبلغ الذى يدخره إلى "ألف جنيه" ، ويرسله إلى إخوته بالبلدة ليتمكنوا من شراء الدواء لأبيه ، وتشتري أمه اللحمة ، وتطبخ عليه أجمل حلة خبيزة وأنجر محشى.

اقترب اليوم من نصفه ، والشمس تلفح الرأس والوجه وهو شارد يبحث فى الفضاء عن النهاية.

يجب أن يتحمل حرارة الشمس ، يجب أن يقاوم ضعفه ، لا يهم أنه مصاب بالفيروس فى كبده ، لأنه مازال شابًا ، ولم يتعد العشرين وبه قوة خارقة لإخماد الألم.

صرخ صاحب المنزل بالمعلم ليساوى طوب الحائط ، وقع الميزان على الأرض ، أمسك المعلم قالبًا من الطوب وألقاه ناحية "موسى" ليناوله الميزان ، فاق من أحلامه وقال: حاضر يا معلم.. حاضر.

لم يكن يهمه في تلك اللحظة سوى الورقات السبع ذات الجنيهات العشرة ليضعها فى الظرف الأصفر الذى اشتراه من المكتبة المجاورة لحجرته بمنزل الحاجة "صديقة" ، المرأة التى تشبه أمه ، ويحكى لها كل شيء ، ويدخر معها نقوده.

الوحيدة التى يمكن إئتمانها على ناتج عرقه اليومى فى بلدة تمتلئ بالمجرمين ، فى الليلة الماضية قال : يا حاجة ، بكرة ربنا هيرزقنى بيومية جديدة وآخذ الألف جنيه وأسافر للبلد ، أمى وحشتنى أوى ، طبطبت على رأسه وقالت: نام يا"موسى"ربنا موجود.

أطلق مؤذن الجامع المجاور لعمله أذان العصر ، قال لنفسه: يا فرج الله ، كان المعلم يستعد لإنهاء بناء الحائط ، سمع صراخه المتكرر:"مونة.. مونة" ، أمسك الكوريك ، ملأ الأروانة عن آخرها ، رفعها فوق كتفه ، سار على السقف مختالاً بنفسه ، قال للمعلم بصوت مبهج: آخر أروانة يا معلم ، فقال له بصوت حنون: لم العدة واغسلها كويس يا"موسى"، رد بسعادة بالغة: أنت تؤمر يا سيد المعلمين.

حينما تسلم اليومية أحس بانقباض قلبه؛ لأن المبلغ كان ثلاث ورقات بعشرين وورقة بعشرة ، لم يكن يتفائل بورقة العشرين ، أعاد عد الأجرة ثلاث مرات ، وضعها بجيبه ، لم ينتظر زملاءه و صاح: أنا همشى يا معلم لحسن مسافر النهارده ، رد صاحب المنزل بصلافة: هو أنتو زينا يا"موسى"عندكوا بيوت وأهل ، لم يهتم بصوته ، وانطلق إلى حجرته. فوجئ بصحن المنزل الكبير مملؤ بالرجال والنساء المتشحات بالسواد ، لم يفهم سبب ذلك ، توقع حضورهم لحل مشكلة الحمام المتهالك أو لفض المشاجرات بسبب انقطاع المياه.

اتجه إلى حجرته القابعة فى آخر المنزل المكون من دور واحد بآخر الحومة الطويلة ، والتى تلتقي بحارة أكثر ضيقا وتلتف عشرات المرات قبل أن تصل إلى شارع البلدة الرئيسى ، ويحتوى المنزل على عشر حجرات متلاصقة ، ويستحم سكانه جميعاً بحمامه الوحيد المكتظ بعشرات الوجوه البشرية الآملة فى الطهارة.

أثناء مروره غير عابئ بوجوه المجتمعين ، أوقفه "عوض" جاره وقال: الحاجة "صديقة" تعيش أنت ، صرخ: وفلوسى فين ، نادي وسط الرجال والنساء المتشحات بالسواد: الحاجة كان عندها ألف جنيه أمانة ، ناقصين سبعين ، أمسك رجل يمتلأ وجهه خشونة رقبته وقال بصوت مرعب: اخرس يا كلب ، الحاجة تأخذ منك أنت فلوس يا أُجرى ، قال: لم تأخذهم ، كنت بأحوش معها ، دى زى أمى.

جره أقارب الحاجة لخارج المنزل ، قال أحدهم بعد أن أخرج مطوته: ابعد عن هنا حتى لا أمزق وجهك ، قام من على الأرض ، ونظر إلى مدخل البيت المملوء بالوجوه الغريبة ، ودون أن يفكر ، خرج من الحومة الطويلة للشارع ، ركب توكتوك قائلاً: الموقف يا أسطى.

نزل أمام الباص وجد سائقاً ينادى:"نفر الفيوم.. نفر الفيوم" ، لم يتردد ودخل الباص ، كان المسجد المجاور للموقف يعلن أذان المغرب ، قال لنفسه: سوف أصل مع العشاء وأشترى فرختين وزجاجة زيت ، ستقوم أمى بطبخ أجمل حلة أرز وبطاطس بالطماطم والبصل والثوم ، تحسس جيبه قائلا لنفسه: مازال معى سبعون جنيهًا !

"**الكعك والورد**"

لا انتفاضات.. لا مشاعر.. لا قلب يخفق.. لا حب ، هناك أمل سوف ينبثق فجأة ، يشق الطريق ، لتغرد العصافير ويزدهر الورد ، وتظهر أجمل البسمات على وجه البراح .

لا شيء من كل ذلك سوى في الحلم ، لا شيء يثنينا أبدًا عن تجاوز الغدر ورؤية النور ، أحلام بريئة سوف تسرى بجسدى ، ستغنى البلابل فوق أغصان الربيع ، لا امرأة في السوق تتمايل وتخلق حولها ظل السعادة ، قال بإصرار: سأمر من هذه الأزمة محققًا أحلامي.

البيوت القش ، والأحلام المستحيلة تأكل أذهان الجميع وترفرف على قلبي ، أتذكر ضحكته وصبره.

هذا الصباح مختلف ، المآذن تهلل حولي على غير عادتها...لبيك اللهم لبيك... لبيك لا شريك لك لبيك... الجميع مبتهج ، قالوا بصوت واحد في وجهي: كل سنة وأنت طيب... إنه العيد.

قالت زوجتى على غير عادتها: تفطر؟ استكملت بتلقائية: صباح الخير ، هذا الصباح تغنى العصافير فيه وتنادى علينا لننطلق غير عابئين بمحطة الوصول.

هذه الطرق المتعرجة ليست طريقي ، أشم رائحة المطر ، هذه الطريق المكفهرة المرسومة بخطوط صفراء لا أعرف نهايتها.

أمشى سريعًا خلف ألوان البيوت وأندهش ، هل كانوا يدقون أسياخ الحديد في الأراضي البور لتظهر العمائر والبيوت قبيحة ، أمشى سريعًا لأخطف قلوب العذارى ، تنبثق في الأرض رائحة العبير ، أمشى سريعًا ، لكن قلبي يخفق بذهول لأشم لمرة أخيرة رائحة الزهور قبل دفنها ، طيفه مازال يداعبنى لأفتح عيونى ، أراه بجلبابه الأبيض ، افتقدته ، لكنه لم يتركنى قط.

ماذا كان يجرى بخلدي حين وقفت منتظرًا المطر أناطح السحاب ، ماذا كان يجرى حولي؟ أتشمم اليوم رائحته الممزوجة بالورد ، أغضب حين تنتابني ذكرى الموتى ، لكنني منذ يومين كنت أحلم بالصعود إلى ملكوته ، المطر الجميل خذلني ولم ينزل من السماء.

أشتاق إلى رؤيته عالياً فوق السماء ، أرغب في ضمه بين ضلوعي ، تحول زوجتى وأولادي وأهلي وحبيبتي بيني وبين خلاصي ، أرغب في التحليق لأرمى عليهم جميعًا أجمل العطور وأنقى الكلمات وطهر الروح وبراءة العيون ، فجأة رأيته بكامل هيئته ، شاهدت وجهه النضر مملوءًا بياضًا.

يمسك المغرفة ، يضربها فى الحلة قبل أن يضعها وسط المكرونة ، يخرج صوتًا جميلاً عذبًا ، صباح العيد الصغير يلف حوله الأطفال ، لم يقضِهِ معنا قط ، يعود إلى المنزل بعد الصلاة والتكبير ، يلبس ملابسه البيضاء"يفتح محله ويجهز الأرز والمكرونة والدقة والتقلية والشطة ، كان خفيفًا لدرجة أذهلتني ، يغسل الأطباق ، يجهز العربة ليدخل الرزق من بابه المفتوح ، يرص بإتقان الملاعق خلف الشطة بجوار التقلية وأمام الدقة.

كتب له "فوزي غريب" الخطاط فوق عربته البيضاء والملونة جملاً بديعة ، "أبو دقة روح الحياة" ، رسم صور الطيور والأراجوزات ، الأطفال المبتهجون يتناولون الكشري بالملابس الملونة ، أعلى العربة ظهرت اللافتة"أبو حلاوة والطعم الرباني" ، اشتهر في الحي بكشري"أبو حلاوة"رغم أن اسمه"الطيب".

يعود من يومه الطويل ، يحتضنني ويأخذني بجواره في السرير ، كان جميلاً في كل الأوقات.

يغلق المحل خمسة أيام في العيد الكبير، يذهب إلى المقابر ليزور والدته ووالده ، أجلس على قدميه بالأتوبيس ، يوزع الورد والكعك على التربي وأحباب الله ، يبكى قليلاً ، يتركني ألعب وسط الصبار ، يأخذني في حضنه قائلاً بصوت عذب: اقرأ الفاتحة لستك وجدك يا واد.

كافح ليوظفني بالمحافظة ، قبل موته بكى وهو يحتضننى قائلاً: لا تغلق محل الكشري ، اليوم سأذهب إليه بالمقابر أتونس بذكراه العطرة ، أوزع الكعك والورد على روحه الطيبة.

سوف أعانقه وآخذه في حضني لأتدفأ بقلبه وأشرب من رحيق البنفسج الذى يضخ من روحه ، حين أقابله سأقول: غداً سأفتح الدكان وأعد أطباقك الشهية.

"القمر الساطع"

ألقي بشباكي في مياه النهر ، تخرج خاوية ، ثلاثة أيام أحاول اصطياد سمكة واحدة ، لكن المحاولات كلها باءت بالفشل ، مع ذلك أشعر أنني سعيد ، لا يهم أن شباكي خاوية ، لا يهم أن رزقي قليل ، لا يهم أنني لا أملك أى شىء.

أحس أن الفضاء ملكى ، أتدفأ فيه ، يأخذنى لسمائه الواسعة ويطير ، يعيدنى نقيًّا طاهرًا لمركبى الصغير ، لا يهم أنهم يكسبون ويكدسون ويمرحون ، لا يهم.

أطير فى سماء بيضاء كالقمر ، أمشى على الأرض وحيدًا خلف أصداء البنفسج الذي يطل على البيوت ، أدرك أننى لا أحتكم على مليم واحد ، لا يهم أى شىء سوى تغريد الطيور .

الآن أستطيع أن أتفرغ لحياتى التى أجلتها دهراً ، اليوم يسطع القمر بالسماء على غير عادته ، أشاهد نفسى حمامة بيضاء ، أنقش فوق الأرض الواسعة رسوماتى ، أضع علامة على أول الأرض وعلامة على آخرها ، أقول هذه الأرض طاهرة بيضاء لا تمسوها.

يهرع المجرمون بعيدًا ، بضربة من أصدقائى الطيور التى أخذت بيدى ، غرستُ بجبيني سيفًا كبيرًا ، فلَّق رؤوس اللصوص ، أيقظ صوت نقراتى الشياطين في أثناء رسمي النقاط المختلفة حول الدنيا ، وقفوا بعيدًا ينظرون بتعجب كيفية تشبيك خيوط السماء بالأرض.

جاءتنى وقالت أنا معك ، قلت أنتِ يمامتى المغردة ، احتضنتنى وخرجنا معًا لينزل المطر على رؤوس المدهوشين تحت أقدامنا من قوة النور الذى غطى الدنيا.

شاهدته ينام مع زوجته الثالثة ، يعبر فوقها بكل قوته ، تتأوه"سليمة"تحته وتحتضنه ، ظلا ساعتين متلاصقين ، يبهران الدنيا برائحة الحب.

رفرفت عشتهما المبنية بالحطب والخوص بجوار الشط كنجمة عالية ، مضاءة بنور زاهٍ أحمر ، كانت بندقيته بجواره وهو يغير الأوضاع ، تستجيب زوجته بخفة إنسانية بارعة ، ينسجمان ، يلتصقان ، يغردان للعالم نشيد الحب ، نام على ظهره أخيرًا بجوارها ، ضحك فى وجهها ، ابتسمت بدلال ، قامت لتجهز طشت الحمام بقميص نومها القماشى المرفوع حتى

فخذيها ، لمح رِدفيها ظاهرين كالكمثرى ، شدها مرة ثانية بجواره ، تدللت قائلة: يا راجل كفاية ، لكن"بلال الغجرى"سوف يلتهمها الليلة.

النور يملأ الحجرة وبندقيته الآلية بجواره تنتظر المزيد من القذف.

اليوم لا أعرف أى شيء عن الماضى أو المستقبل ، أحلق فى البراح ، يدخل الليل والنور يملأ الدنيا ، ذهبت الشمس للراحة وتركت القمر لتغرد اليمامة الواقفة على هلاله أغانى المساء.

ردد البشر في الأراضي والمصانع أغانيهم المبهجة ، ظل النور مشعًّا ببياضه رغم الليل الطويل ، سمع أحدهم يتساءل: كم يكلف القمر ليظل مشعًا ليل نهار؟ قلت دون أن يسمعنى أحد غيره وكانت أذنيه مفتوحتين: مال الدنيا ، رد: لا يهم ، يجب أن يستمر هذا النور الذى يحتاجه الناس.

فجأة ألقيت شباكي سعيدًا برائحة"سليمة"، امتلأت برزقٍ وفيرٍ لم أكن أتوقعه قط ... إنها الأسماك.

"قطع الرقاب"

في هذه البلاد تتجمع أسر كثيرة وتعيش مع بعضها البعض فى بيت واحد بحجرات مستقلة ، مدعين أنهم إخوة ، كنت غريباً عنهم ، أحاول اكتشافهم رغم معاشرتي الطويلة لهم ، فاجأوني بالمطالبة بحقوقهم ، أدَّعى فجأة أنني أخوهم ، قالوا كلامًا كثيرًا عن السمات التي منَّ الله بها علىّ وعن الدعم الكبير الذى قدموه لي.

فجأة أمسكوا بأطفال صغار مولودين منذ يومين ، قطعوا رقابهم ، وصرخوا في وجهي بأني السبب في قتلهم ، أتحسس الرقاب الصغيرة المقطوعة التي أغرقتني في الدم ، كانوا يصرخون غاضبين في وجهي ، أطبطب عليهم ، تعيقني دماؤهم المغلية عن المرور إلى قلوبهم ، فجأة وضعوا الرقاب المقطوعة على أجسامهم ، عادت الحياة إلى عيونهم ، ظهرت الرقاب عريضة مشوهة كبيرة بحجم الرأس.

صرخت البنات الصغيرات مقطوعات الرقاب في وجهي مدعيات بأنني الحاقد على براءتهن ، اتهمنني بارتكاب الجريمة ليصبح منظرهن البشع واضحاً للجميع ، قالت إحدهن: سيُنَادي علينا المارة: يا ملتصقات الرقاب.

صحوت من نومي ، حاولت إعادة الحلم فظهر كاملاً ، حاولت تغيير شكلهن ، لأشاهدهن بدون تشوه الرقبة ، لم أتمكن ، قلت لنفسي:"لا يهم "، وصحوت من نومي.

صرخ "رضا" في وجهي حين قابلته وأنا متجه إلى منزلي الذى شيدته على الأرض الزراعية بجوار بلدتنا ، ونادى بصوت عالٍ: عامل إيه يا باشا؟ كان المنزل يقترب ، فرددت:"إزيك يا رضا" ، قال: الوحش ماسك في رقبتي .

فتحت باب البيت وأخرجت الحصيرة وفرشتها على الأرض ، استكمل بنظرات مريبة:"أعمل إيه ، الوحش ماسك فيَّ من بالليل وبيقولى هقطع رقبتك".

جلس بجواري قائلا :" امبارح جاءوني من الإصلاحية وصرخوا في وجهي لأعود إليهم ، رددت بقوة: لم يعد في رأسي قلب يتحمل عصيانكم الغليظة" ، لم يتركوني ، حاول أحدهم قطع رقبتي ،

شاهدتك تدافع عنى وتمسك برقبتي المقطوعة وتضعها على جسمي ، صحوت من نومي ، فقلت: "لازم أزور الأستاذ".

تحسس رقبته واطمئن عليها ، وتحدث مع نفسه: شبابيك كتيرة متحوطة بأسياخ ، نحط رءوسنا عليها ونتمنى الخروج ، يغلق الأبلوات والأساتذة أبوابهم ويعلمونا مخابئ الشوارع وقهر الوحوش ، قررت الهروب من عيونهم المغلولة ، وحين خرجت من الشارع شاهدت القصر مكتوبًا على بابه"دار الإيواء إصلاح وتهذيب" ، بيت من لا أهل له.

سلمني أسراره وودعني قائلا:"والنبي يا أستاذ خلى بالك من رقبتي دى فيها روحي" ، أعطيته ما فيه النصيب ، فقام مبتعدًا يكلم نفسه بصوت عالٍ قائلاً:"حوش الوحش يا رب.. ابعد الوحش كله يا رب".

حاولت تذكر الأسر الكثيرة التي عشت معها سنينا طويلة واتهمتني بقطع رقاب أبنائهم ، لم أستطِع ، فوجئت بالبنات الصغيرات يكبرن ويلبسن ملابس ملونة ، تشع وجوههن نورًا ، كانت رقابهن أجمل ما فيهن ، صرخ رضا من بعيد: "أفتكر يا أستاذ... رقبتي يعنى روحي".

"القيود المحروقة"

لا توجد قطعة أثاث واحدة مكانها ، الدواليب مفتّوَحة الأبواب ، الملابس مبعثرة ، الحقائب القديمة ملقاة بالصالة وفوق الكراسى ، المراتب ممزقة ، القطن منثور بأرجاء الشقة.

لم تسلم أدوات المطبخ والملابس المبتلة بالغسالة من عبثهم.

من كان هنا؟ لم يسعفه عقله بالإجابة ، قال بصوت مسموع مرة أخرى: ما هذه الفوضى؟

يتذكر أنه صباح اليوم ترك ابنه الكبير مكتئبًا حزينًا ، أيقظه وأهانه ليسمع الجيران صراخه: يا فاشل ، يا عاطل!

قال لزوجته حين استيقظت على صراخه: إياكِ أن تفتحي فمك ، أنت السبب في الخراب ، كانت ابنته الصغيرة تبكى ، لكن صوتها لم يخرج ، قالت: أنا نازلة على الدرس يا بابا ، لم يرد عليها ، وارتدى ملابسه سريعًا ، وخرج يبحث عن السر وحجم الانهيار .

لم يسعفه تليفونه برنة واحدة تخرجه من الكرب الذى عشش برأسه ، تقدم نحو المقهى ، جلس وحيدًا يستدعى شريط الذكريات ، استمر ساعتين يحاول الفهم ، شرب عشرة أحجار معسل وخمسة فناجين قهوة ، وعاد إلى منزله فوجد كل هذه الفوضى.

تذكر أنه بالأمس عاد من عمله بعد أن وقع بدفتر الحضور ، وأعطى للجميع دروساً في الوعظ ، اليوم يقف وحيداً يعاين بنفسه الدمار ، جلس على الملابس الممزقة فوق القطن المتناثر ، قال لنفسه: يجب أن أعرف من أحدث هذه البلبلة ، اعتصر عقله فلم يعثر على شيء واحد أو كلمة طيبة قالها منذ شهور لأبنائه وزوجته.

أصبحت حياته ويومياته عبارة عن نقد متكرر لكل ما يحيط به ، الدنيا تسير في اتجاه معاكس لرغباته ، استكثرت عليه حتى الاعتراض ، فكانت الفوضى.

رن جرس الموبايل ، جاءه صوت ابنته ، قالت دون مقدمات: أنا وماما في بيت جدي و"طه" سافر لشرم الشيخ للعمل مع السياح.

لم يرد فقالت: مع السلامة وأغلقت الهاتف ، كيف يحدث ذلك؟ لم يفارقوا البيت قط ، كيف استطاعوا أن يأخذوا هذا القرار؟ !

مرة أخرى يرن جرس التليفون ، جاء صوت أخيه حزينًا قائلاً: لا نحتاج منك شيئًا ، لا نرغب في معرفتك مرة أخرى ، إذا كنت ترغب في استلام ورثك ، ليس أمامك إلا المحكمة

واستكمل: إخوتك الستة اتفقوا على عدم بيع بيت العيلة لأحد… حل مشاكلك بعيدًا عنا ، قبل أن يرد قال أخوه: من غير سلام ، لا ترِنا وجهك مرة أخرى وأغلق الهاتف.

دق جرس الباب ، قام مفزوعًا ، فتح جزءًا صغيرًا من الباب ، كان صاحب المنزل يسأل عن الإيجار المتأخر ، اعتذر بأدب ، وعده بأنه سيدبر المبلغ ويدفع كل ما عليه في الصباح ، أغلق الباب بعد أن هدده الرجل بأنه سوف يذهب إلى المحكمة ليطرده ، عاد الدق للباب ، توقع أن الرجل سوف يضربه ، فتح بحرص ، فوجئ بمحصل الكهرباء يطلب الفواتير المتأخرة وإلا سيضطر لقطع التيار ، حاول أن يقدم الاعتذارات ليسامحه ، أكد أنه سيذهب غدًا بنفسه لإدارة الكهرباء ليدفع المتأخرات ، صمم المحصل على قطع التيار ، نظر إليه قبل فصل النور وقال: اليوم الأخير انتهى ، ستعيش في الظلام.

دخل الحمام بشبشبه وسط أكوام الملابس الملقاة على أرضيته ، فتح الحنفية ليشرب ، المياه مقطوعة منذ الأمس لعجزه عن دفع قيمة غسيل وجهه ويديه ، كادت رأسه تنفجر ، أحس بالعجز لدقائق ، دون أن يفكر في الخروج ، تقدم نحو باب الشقة مسرعاً ، فتحه عن آخره ، وقف على أول السلم ، نظر إلى الفوضى ، أخرج الكبريت من جيبه ، أشعل عود ثقاب فى الجريدة التي مازال يحملها ، ألقاها على الورق والملابس المنثورة بأرضية الصالة ، حين تأكد من اشتعال الحريق ، أغلق الباب ونزل مترجلا السلم بهدوء.

"بهجة الحزن"

قالت "حنونة": عدت إلى منزل "الحاجة عيوشة" الذى هجرته منذ عشرين عامًا ، حاملة بنتًا صغيرة ميتة ، لأغسلها بحجرتى ، حينما لمست أطراف أصابعى جسد البنت انتفخت بطنها وحجظت عيناها.

همست "عيوشة" بعيون "حنونة": اضغطى على بطنها لتفرغى الهواء المسموم ، كان الجو شديد الحرارة ، وألقى وابور الجاز ببخاره الأسود علينا ، وامتلأت الشقة الضيقة بالدخان المميت ، لم يطفئ أحد الوابور ليوقف تدفق السموم الخانقة.

خرجت إلى الشارع أطلب العون ، وجدت صوانًا كبيرًا أمام المنزل ، وقف الناس الذين أعرفهم مدهوشين من منظر جلبابى الأسود الواسع ورأسى العاري ووجهى الملطخ بالهباب ، قابلني أخى الكبير ليأخذ العزاء فى الميتة ، ناديته وهمستُ فى أذنه: البنت مازالت حية ومفتوحة العينين ، وسألته برهبة: أتدفنها حية؟

نظر إلى البنت فى ذهول وهى تضحك ، صاحت أختى الصغيرة لتغير الحديث: البنت فى الحلم هى الحزن ومادامت ماتت فإن الحزن يجب أن يختفي ، فلا مكان له بيننا ، لم يبق إلا البهجة ، كادت محاولات أختي المستميتة تنجح لجعل جلسة فراقنا الأخيرة جلسة للرضا.

قابلتهم جميعاً هذه الليلة ، كانوا يتشاجرون ويصرخون في وجوه بعضهم ، ظهرت أجزاء من وجوههم سوداء ، نطق لسانهم بكلمات عبرت عن التحدى ، حين تحدثوا كإخوة ، تركتهم ، سرت وحدى متجهًا إلى الشارع ، قال أخى الكبير بسخرية: على العموم تشكر إنك جبتهم تاني ، لم أشاهد ملامح وجه أخى الصغير ، لم أنظر فى عينيه ، كانت عيناي مثبتتين تجاهه لأفهم سر حزنه.

أرسلت إجابتي بهدوء لنن عينه قائلا: أنت زعلان واحنا بنراضيك ، رد بسخرية: يمكنك مراضاتى دون اللمة والفرجة ، أهان أخواتي البنات قائلاً بشماتة: بتمشوا بإذنه يا سَفَلَة ، أمركم تيجو ومتقدروش ترفضوا طلبه ، حين وجدتهم يتحدثون كإخوة ، تركتهم وسرت وحيداً باتجاه باب الشارع.

خرجوا ورائى ، قالوا في نفس واحد: لا تتركنا ، ابق معنا ، نحن سنتكفل بحمايتك ، قالت أختى: هانت عليك العشرة ، الإخوات ملهمش إلا بعض ، الولد يجى غيره ، الزوج يتغير ، لكن الأخ لا يمكن تعويضه ، قالت أختي صاحبة الحلم: نحن خلقنا دون أب أو أم أو إخوة ، لم يكن لأدم وحواء سوى أولادهما ، اهتممنا بأولادنا وبيوتنا وبعدنا عنك ، اغفرلنا ، كانت كلماتهم العزاء الوحيد لقلبى ، نسيت وقتها وصف أخى لى بإبليس ، حين نطقها ، وأنا أتودد إليه أن يقبلنى ، سخر قائلا: كيف للملائكة أن يعاشروا الشياطين؟! أعلم أنها غمة وانزاحت ، أخذنا عزاء الحزن ، لم يتمكن وهو عائد إلى فى الحلم فى صورة طفلة ميتة أن يتحملنى ، فضحك ساخرًا من جهلنا ، قالت أختى الصغيرة بتلقائية أمامهم: لقد رحل مرة أخرى.

تركتهم وسرت في الشارع ، قلت لنفسى: كانت غمة وانزاحت ، لم يعد إلا البهجة ، شاهدت الجيران مجتمعين استعدادا للتعازى أمام منزلنا ، شاهدوا وجهى مبتسما ، أيقنوا أننى مازلت مبتهجًا ، لن يتمكن أحد من دفنى حيًّا.

"حلم التواصل"

حين تغط أرواحنا في النوم ننطلق في الفضاء الرحب ، نعيش مع الأحياء والأموات ، نزور الحدائق ، نتسلق البيوت ، لا يتمكن جنيٌّ أن يمنع طيراننا ، نحيا ونموت ، لا يمكن لأحد أن يتخيل هذه التجربة الإنسانية الرائعة ، إنها تجديد لتخيلاتنا التي تفحمت بفعل الحياة.

السؤال الجوهري الذى واجهني حين صحوت من نومي"هل هناك علاقة بين ما يجرى في أحلامنا والواقع الذى نعيشه؟" ما أدوات الاتصال بين هذا العالم الخفي وبين حياتنا المعاشة؟

سألني ابنى ببلاهة: هل الإنترنت لغة التواصل الجديدة لنقل مشاعر الإنسان وكل ما يدور بخلده للفضاء؟

عدت مرة أخرى إلى أحلامي والعالم الرحب الغريب الذى يحتويني ، كان كل شيء مجهزًا للانطلاق ، البيوت التي أعيش فيها والناس الذين أقابلهم ، والأحداث التي تقع في أحلامي تعود لأستكمل باقى الحكاية ، النوم هو العالم الخفي الذى أستمتع فيه بانطلاق روحي .

أصبح بالنسبة لي هو الأمل ، أعاشر بشرًا لم أتعرف عليهم ، بشرًا فقدتهم. وهناك آخرون أتمنى مقابلتهم ، سيأتى يومًا يكتشفون السر كي يصبح العالم الخفي الذى نراه في أحلامنا مكملا للعالم الذى نعيشه ، ونجد أنفسنا بنفس المكان الذى تركناه بالحلم ، نعاشر نفس الأشخاص ، فنستكمل الحكاية رغم اليقظة.

شيء عجيب يحدث كل ليلة ولا أستطيع البوح به لأحد ، حين أخلد للنوم أرى الأشخاص الذين سأقابلهم فى اليوم التالي ، أستمع للحوارات التي ستحدث والمشاكل التي تظهر ، والعلاقات الجديدة والقديمة ، الخبايا التي تظهر في تفاصيل كل نهار ، حين أصحو من النوم أمر بالحلم ، نفس الروائح والألوان واللهجات والبيوت والأشخاص والحوارات ، أعتقد أنني مازلت نائمًا ، لكن التوكتوك يخبطني في ظهري فأقع أمام المقهى ، أصحو من النوم ، رغم مرورى وسط البشر بالحارة.

تشدنى سيدة الجزمجية الممشوقة القوام ، تأخذنى إلى حضنها الدافئ ، أتلمس صدرها النافر فتقول: معلهش يا خويا مايقع إلا الشاطر ، أحضر ابنها كرسيًّا لأجلس عليه ، دلق على رأسى حلة مياه باردة ، قلت: ألا تعرفينى؟ ردت: أنت"سيد" أفندى بتاع البوسطة رددت بثقة: كنا معاً بالأمس فى قصر الملك نأكل أطيب اللحوم ، ضحكت المرأة ولم تتذكر حين عاشرتها في حلمى على سرير الأميرة ، ردت بسخرية: يسمع من بقك ربنا يا فندى.

هذه الأيام أحاول الفصل بين رحلتي الليل والنهار ، لكنني دائمًا أفشل ، حين أنام آخر اليوم سأخذ جيرانى وزملائى وأهلى ليدخلوا أحلامى ، لنعاشر بعضنا دون شماتة ، سوف يأتي يوم وتتحقق الأحلام.

"الزوج المسكين"

كانت وشايته سبباً في تركي لشقتي القديمة ، فضحنى وسط رواد المقهى ، لمعاشرتى"ليلى" زوجة جارى ، في منتصف النهار ، لم يتذكر صداقتنا وإخلاصي للعشرة والعيش والملح ، كانت تستمتع بالأوضاع المختلفة معي ، بعد أن تطرد من منزل زوجها كل ظهر.

أعود من العمل ، آكل سريعاً مع زوجتى ، أذهب لشقتها المقابلة لتصليح إريل التليفزيون أو سلك الدش ، كنت أغيب في الشقة ساعة أو ساعتين ، لم تشك قط زوجتى ولم تهتم.

تدخل إلى سريرها لتنام القيلولة حين تعلم بخروجي لمساعدة جارتي.

في اليوم الذي قررت"ليلى"قتل زوجها قالت بأذى:"سوف تقوم أنت بذلك" ، رفضت ، وحكيت لزوجها ما دار بيني وبينها دون أن أذكر اسمى ، وفي النهاية حرمني شم رائحة إبطيها واضطررت إلى ترك شقتى.

قام الساكن الجديد بقتل زوج "ليلى" ، خرج من البيت في يوم ظهيرة ، ليعود قبل العصر باحثًا عنه بالدولاب ، لم يجده ، أمسكت"ليلى" برقبته صارخة في وجهه: بتشك في يا بن الكلب؟ باغته جاره الجديد من الخلف بالسكين ، أخفت الآلة ، وغادر جارها الشقة بعد أن عاشرها بجوار جثة زوجها عارية ، صرخت ليتجمع الجيران ، ادعت بأن لصا دخل الشقة ليغتصبها ، حاول الزوج منعه ، فقسم رأسه نصفين وهرب ، الجميع يعرف أصل الحكاية ، ومع ذلك فإن"ليلى"لم تفارق قلبي يومًا واحدًا ، أتمنى النوم ولو ساعة واحدة في حضنها قبل موتى.

لا أعرف كيف أطرد صورتها الملاصقة لروحي ، كلما قابلت امرأة تذكرتها؛ لأنها التي فجرت شريان النشوة في روحي ، ورقصت على قلبي لأحب الحياة.

حين قابلته على المقهى في اليوم الأخير ، قلت له:"لماذا حرمتني النعمة؟" لم يرد ، ودعته للأبد ، متسائلا:"هل تكرهني؟ " لم يرد.

طاردتنى "ليلى" مرة ثانية فبصقتُ على الأرض ، واتصلت بصاحب المنزل ، واتفقت معه لأعود إلى شقتي القديمة مقابل عشرة آلاف جنيه ، وافق على الفور ، اتصل بالساكن الجديد ، طلب

منه إخلاء الشقة ، أخرجت كل ما أملك ووضعته في جيبه كى يوقع على عقد الإيجار ، حملته في قلبي ، وطرت للمنزل ، كانت زوجتى سعيدة بالخبر ، لم تعرف نوم القيلولة بعد تركنا شقتنا القديمة ، ظللتُ طوال الليل أعاشرها كالمجنون وهى تصرخ من الفرح لعودتها أخيرا إلى جوار "ليلى" الطيبة.

"أمل حسن"

يذهب إلى مقهى العمال فى السادسة صباحًا ، يجلس وحيدًا دون أن يطلب شيئًا ، يضع" حسن الجحش"صينية الشاى أمامه ، يرتشف منها حتى ثلثها ، يترك الباقي أمامه علامة علي أحقيته بحجز الكرسي ، ينتظر نداء الصنايعية للعمل معهم يومية جديدة ، لم يهمه طبيعة عملهم: بلاطة ، نجارة ، حداد ، طبلية ، خرسانة ، بنا ، المهم أن يأتى أحدهم ليركب معه أو يسير خلفه يبحث فى اليوم الطويل عن ذكرى مبهجة ليمر بسلام ويستلم أجرته.

تعاوده مشاهد الأب ، الأخوات ، الأعمام ، وقد تركوه وحيدًا في الشارع يبحث عن الرزق كالكلاب والقطط.

يتذكر هذا اليوم البعيد الذى لم ينسه ، حين فوجئ بصوت العمال الذين رافقوه من المقهى يرتفع بالغناء ، في البداية ردد ورائهم بكسوف ، فوجئ بصوته يرتفع ويدندن معهم الأغانى التى يغيرون ألحانها وكلماتها حسب المهنة وشكل الصباح ولون السماء ، منذ هذا اليوم تعلم الغناء وأصبح ونيسه في الهم والكرب.

طول عمرك يا أرض بتدينا الخير... والحب المفقود ، طول عمرك يابا متغندر... والقلب مكسور ، طول عمرك يامه فرحانة ...... والروح حزينة.

اليوم لم يعد يتذكر شيئًا ، يتمنى أن ينادى عليه أى مقاول أو صاحب منزل ليوقف نظرات زوجته التى تقعده مهزومًا بالحجرة.

تقدم السن والصنايعية تغيروا ، يختار المقاولون الشباب الصغير ليغنوا معهم ويضيع اليوم ، يقدم نفسه لأى شخص يمر بالشارع ، يجرى سريعاً إليه ويعرض نفسه ، لكن خطواته ثقلت ، ويسبقه الشباب لينالوا الرزق ، يعود حسن خالى الوفاض إلى حجرته بعد الظهر.

تخرج "محمودة" زوجته لمواساته وتقول بحب: ولا يهمك ياراجل ، ربنا مبينساش حد ، هترزق ، متخفش يا"حسن" ، خش ريح شوية ، أنا هروح عند "أم السعد" أساعدها شوية.

يدخل الحمام المشترك للحجرات العشرة بالمنزل الذى يأويه منذ عشرين عاما ، ينام على السرير الوحيد بعد هجرة ولديهما الاثنين لليبيا باحثين عن لقمة العيش ، يتفاجأ بـ"محمودة" تتحسس قدمه وتنادى: قوم يا"حسن" ، قوم يا خويا علشان نتعشى.

دون أن يغسل وجهه ، تضع أمامه الطبق المملوء بالبذنجان والفلفل ، تناوله رغيفين ، يأكل "حسن" ويملأ بطنه قائلاً بصوت خفيض: لا تقلقى غدًا سيختارنى أحد الصنايعية وأعود باللحم والأرز ، تطبطب عليه ، ترفع الطبق الفارغ من أمامه وتقول فى عزة نفس: مستورة يا خويا ، العيال بعثوا امبارح خمسين جنيه بالبوسطة ، خد عشرة جنيه وأطلع على القهوة ، ربنا مبينساش حد.

"جبر الخلاص"

الأيام تمشى رتيبة ، الملل يملأ أعشاش البيوت ، الانطلاق ضاع ، سرق البهجة ونقلها الله إلى مكان آخر ، استعد للمفاجأت السوداء ، أيام كثيرة تمر وتسير برتابة وتشفى ، بالأمس غابت بائعة الجرائد ، فكتب عليك السير وحيدًا وسط الهياكل البشرية الميتة دون معرفة تفاصيل ما يدور بينهم .

الجميع استيقظ من النوم دون أمل ، حاول أن يتذكر أى شىء جميل ، فقدوا القدرة على التذكر ، لم تعد إلا الأخبار المفزعة ، سأذهب اليوم إلى عملي وأقول بصوت عالٍ: صباح الخير ، أعلم أنهم لن يسمعوني ، لن يروني ، الكل مشغول بالموت القابع داخل أقبية البيوت ، الحجرات والشقق ليست مسلحًا وأثاثًا ، البيوت بشر ، لمَّة ، أين أهلي؟

أنت الآن في مفترق طرق ، قطعت نصف الطريق ويجب أن تستكمل الباقي ، لا يهم ما تفوته من مخلفات ، لا يهم ما يفوتك ، المهم أن تستكمل الرحلة حتى الموت ، دون أن تحس بوخز الضمير أو بالقلب الحزين على العمر الهارب ، لماذا نستمر؟ ما الدافع؟

أشياء كثيرة تدفعني لاستكمال السير ، دون أمل ، ألا يحتاجك من يحبونك لتقف في ظهورهم حتى يستقيموا ويقفوا على حيلهم؟ ألا تحتاجك البنات الصغيرات حتى لا يخطف قلوبهن أحد ، يحتاجك الناس لتقول لهم كلمة طيبة وتمشى بالحوارى تنشر السلام ، يحتاج الحب لأحاسيس ترويه ، يحتاج الشجر للمياه ليظلل الجدران ، يحتاج الأطفال لمدارس بدون أسوار لتمنع الشر وتوقف التوحش ، كيف لا يحتاجك أحد؟

عشرون عامًا تجرى في البلاد القريبة والبعيدة وتمر من هنا وهناك وتنتظر أن يأتي الفرج ، عشرون عامًا مرت سريعًا ولا أحد يدرى ، ماذا سيحدث غدًا؟ !

أطياف كثيرة راودتني ، أشعلت نارًا خلف الممر الطويل ، دمرت روحي ، أخرج مرة أخرى من القمقم وأعافر دون الوصول إلى نهاية ، أشياء كثيرة تعيد إلى الحياة بريقها ، يأتي من ندى الصبح قائلاً: اجعل الحب مبتغاك ، اجعل طريقك مفروشًا بالورود ، انشر العطاء حولك لتسمع قصص الانتصار.

هل يمكن أن تستبدل الخير بإيذائهم؟ هل تستطيع؟ كانوا ثلاثة عالقين بجسدي يحاولون تقطيعه ، آذيتهم عن غباء وجهل ، توقعت إخلاصهم لعطائي ، كانت الحيلة هي السبب الذى جعلهم يصدقون وعودي الكاذبة بتأمين مستقبلهم وتحملي مسئوليتهم للأبد ، حاول العالقون بجسدي أن يذكروني بوعودي ، حاولوا ، لكن الصدأ ملأ أذني ، أصبت بالطرش ، العدسات المظلمة أعمت عيني ، لم أعد أتشمم رائحة إخلاصهم ، ارتكبت الجرائم في حقهم ، كي يفكوا أزرارهم من على جسدي.

انطلقوا في النهاية بعيدًا ، يتوعدونني بالقتل ، رأتت شعاع الغدر بقلوبهم ، بعد سنين طويلة تذكروني ، أيقنوا أنني فعلت كل تلك الإيذاءات من أجلهم ، قال أكبرهم بحسرة: افتقدناه للأبد ، قال أصغرهم: وحشتني لمسة يديه ، قالت البريئة: ليته يعود ويخونني مرة أخرى.

"رائحة الشر"

لا تفتح المجارى مرة ثانية ، لا يوجد بها إلا القذارة ، لا تستجيب لنداءاتهم ، يريدون إلقاءك بالمجرور ، حاذر فلا يوجد بالصرف إلا النتانة ، لا تحوم حولهم ، حاذر حتى تغادر مجلسهم.

مهما حاولوا أن يحببوك في وجوههم المبتسمة فلن تشم إلا رائحتهم ، إهرب لتعود طائراً بجناحين ترفرف عليهم وتلقى السلامة بحواريهم.

إهرب فالليل جميل والصبح مملوء بهجة ، إمتلك السعادة فهى أملُك ومنتهاك ، إنس طموحاتهم فى الضياع ، لم يعد إلا نفسك ، حافظ عليها ، لا تقترب من الخطر ، لم يعد إلا رائحة النتانة ، لا تقترب.

اكتشف بنفسك ثقب السماء المضئ ، ادخل فيه ، تمنى أن يحميهم ويلقى بظلاله البيضاء الكثيفة على سواد قلوبهم ، تمنى أن يعاشروا بعضهم البعض بحب ، لا تهم النتيجة ، فلن يسعدك حزنهم وانهيارهم ، ستفرح لأنك طالبتهم بالخروج ، لأنهم النتيجة ، يكفيك أنك حاولت ، رفضوا نداءك ، صمموا على جرك ، غادر قبل ضياع الفرصة الأخيرة.

لم يعد إلا نفسك ، حافظ عليها ، إياك والطمع ، يكفيك ما رزقك به الله من مال ، يكفيك صحتك ، أولادك ، تستطيع التحرك والتنفس ، تستطيع السير وحدك ، لا تحتاج إلا القرار.

لن تشم رائحة أقنعتهم ، لا تصدق هذه الخدع حتى لو صارت حقيقية ، يريدون أن يأخذوك للقاع ، لا يهم ، لن تستطيع إبعادهم ، مهما حاولت ، لأنهم مصممون على قذفك للهاوية.

أعلم أن البئر مملوءة بالقذارة ، لا يهم أن يأخذوا كل شيء ، المهم النجاة ، لا يهم من يفوز ، لا يهم أن أخسر؛ لأن نفسى وروحي هما الأمل الأخير.

لن يصدقوا اختلافكم ، لن يحترموا لون ملابسك الفاتح ، لا يهم ، اتركهم يفعلوا ما يشاءون ، لن أعود مرة أخرى ، سوف أستمر في السير ، سوف أعود آمناً راضياً بمصيرى ، أتسلق أشجار المانجو وأتشمم رائحة زهرة البرتقال

أمسى المشهد مرعبًا وأنا أنسحب من أمامهم ، غير عابئ بمصيرى ، فتحوا أفواههم عن آخرها ظهرت أنيابهم طويلة ، خلعوا ملابسهم ، أصبحوا عرايا ، أمسكوا السكاكين والشماريخ ، جروا ورائى ، محاولين التهامى ، حاولوا إلقائي بالمستنقع ، تجاوزت مجالهم ، تشممت رحيق الأمل ، امتلأ الفضاء بالغيوم ، أمطرت السماء ، غسلت الدم وردمت البرك.

"مازال يلاحقنى"

أحس اليوم بالبرد يقذف بالطوب على جسمى ، الخريف يمر تحت قدميَّ العاريتين ، أشاهدهم جميعًا خلف الممر ، يقفون عرايا ، إنهم يواجهون الذل ، أحس اليوم بأننى آمن.

مشهد المدينة التى خلبت عقلى يضيع بالحوارى القديمة وحكايات الأهل ، ظللت عشرين عامًا منقسمًا بين ندى الصباح وعشق المساء ، هربت الصفحة البيضاء محملة بكل الحب ، مشهد المدينة يغادرنى بلا عودة.

شاهدته يقود عربته النقل يصارع الطرق السريعة ، لم يفارق عينى للحظة ، يشرب البانجو والحشيش والبرشام ، لن يتحكم في العربة والمقطورة إلا بعد أن يأخذ الاصطباحة كى تلين الآلة الضخمة تحت يديه.

لا يهمه المجرمون ، يختفى ليمر من الكمائن ، ينام ليلاً بالسيارة على الطرق السريعة ، يكتشف الكمين الآمن ، ينزل حاملاً الشاى والسكر والسجائر والحشيش ، يتدلل على الرجال حاملى الأسلحة ، يقبلوه ضيفًا بجوارهم.

يأخذ الأمان من كلمة أو إشارة ، ينام كالبقرة دون أن يخشى بشرًا أو جنيًّا ، تطير روحه بعيدًا ، ملمس قلبه الميت وملامحه البريئة لم يفارقانى.

ها هى ذي الحكايات تتدفق عن طائر جميل ينطلق في البراح البعيد ، تتدحرج الألحان من قلبى القاسى وأردد: يعشق الحياة ويتمنى الرضا ، ها هى ذى الأحلام تقترب من الحقيقة ، أسرد ذكرياتى خلف أحزانى غير عابئ بالموت.

أمشى بعيدًا فى الصباح والليل ، أمشى ، لكن وجهه مازال يلاحقنى ، أنزل على طريق طويل أتلمس النجاة ، المدن الجميلة والكبيرة والمكتظة بالبشر والسيارات تجرى أمامى وخلفى ، البشر مسرعون يتدفقون من الحوارى والشوارع بالميادين يبتغون الأمان ، يعجزون عن الوقوف للحظة ليشموا رائحته.

أجلس على المقهى المملوء بالبشر ، لا أحد يسمع ، الجميع يتحدث ، لا أحد يرى ، الجميع يشرب ويدخن ، أرمقهم للحظة ، الحياة تمر مسرعة بين أقدامهم ، عيون الرجال والنساء تجرى أمامى وخلفى وحولى تتلمس الرزق.

اقترب منى القهوجى قائلاً: صباح الفل ، دخل للحظة بعينيّ تحسس عودة روحى ، فأجبته على الفور: شاى سكر زيادة يا معلم ، قال أحدهم من داخل المقهى بفخر: اشتريت شريط منع الحمل ، فرمته جيداً ، رججته فى الحقنة وأخذتها ، بعد ساعتين انتفخت بطني ، صرخت وأفزعت المحابيس والعسكر ، حين شاهد الضابط قدمى المتورمة ، اتصل بالإسعاف ، لتنقلني للمستشفى ، لم يتمكن الأطباء من استخراج مياه الحقنة من قدمى ، اضطروا لقطعها ، لم أحزن؛ لأن مأمور السجن كتب طلباً أدى إلى خروجى من الليمان ، دونوا بنهاية الاستمارة"إفراج صحى".

لم أر عينه رغم صوته المتجهم ، ذكرني بسائق المحركات الثقيلة ، رد زميله بحكاية فخرٍ أخرى ، أجرى فى النور المتدفق حولهم وأمسك بضحكة "حسين" السائق وهو يترنح فوق عجلة القيادة منطلقًا بمقطورته ، أعود على صوت المغنى إلى المقهى مرة أخرى ، لأحاسب القهوجى ملقيًا همومي لأدخل المدينة غير عابيء بالموت.

"حمار واشنطن"

شاءت الأقدار أن ألتحق بجامعة بوسط أمريكيا لاستكمل دراستى في علم الاجتماع ، تفوقت على غير العادة ، ولم أغادر سكني إلا للصلاة بالجامع القريب ، كنت مطمئنًا على مستقبلى ، رغم ذلك كانت تطاردنى بقايا قريتنا القديمة"ميت الجمل" ، رغم بعدى عنهم آلاف الأميال ، ولم تفارقنى وجوه أهلى وجيرانى وهم يتسامرون في الحقول والشوارع.

أسأل نفسى: كيف أعيش بواشنطن عاصمة المال والنفوذ والسياسة ، المملوءة بالأحداث والابتهالات الغربية والوجوه النظيفة اللامعة وطيف"ميت الجمل" مازال يلاحقنى؟ فى اليوم الأخير قررت النوم ساعتين قبل رحيلى بالطائرة ، شاهدت حلمًا حيرني تفسيره ، كنت أقف أمام مبنى البنك الدولى وأمسك بجحش أبيض وسط الشارع ، توقفت حركة المرور ، تجمع الناس حولى مدهوشين ، حمار عجيب بشوارع واشنطن يقف وسط المطر والبنايات النظيفة ، قال أحدهم: هرب من حديقة الحيوان ، ردت أخري: أتي من الحقول تائهًا ، حاولت إثناءه ليخرج من عرض الطريق ويعود معى إلى ميت الجمل ، رفض الجحش عرضى.

ضحكت البنات اللائى ظهرت أسنانهن ووجوههن اللامعة لتضئ الشارع ، توقف سائقو الباصات ليتفرجوا على الحمار وصاحبه ، نزل الركاب مهرولين ليتفرجوا على أعجوبة الخلق ، كتبت الصحف بخط عريض في صفحتها الأولى"الجحش الهارب من حارسه بحديقة الحيوان ، يلازم شابًّا أسمر نحيلاً أتي من أرض غريبة ويقتحم شوارع المدينة".

سألت الشرطى الذى حاول مساعدتى: كيف أصل إلى موقف الباصات للسفر إلى قريتى "ميت الجمل" ، ضحك عن آخره ، حاول شد الجحش للخروج من عرض الطريق رفض الحمار السير هازًّا رأسه علامة على العصيان.

توقفت بجوارى سيارة ميكروباص فركبت مسرعاً فيها ، كان ركابها من أهل قريتي ، احتضنتهم ، انطلقت السيارة مسرعة وسط شوارع واشنطن ، دخلت الغابات وانحنت لطريق مغطى من الجانبين بأشجار كثيفة.

انطلق السائق فوق ربوة عالية ، عدنا إلى الحقول المحيطة بقريتنا ، كان الطريق الترابى المؤدي إلى مدخل القرية موحل ، طارت السيارة فوق مياه الترعة ووسط الحقول دون أن تغرس عجلتها أو تغرق في المياه.

نزلت وسط شوارع القرية ، شاهدت"عزيزة" تقف وسط دكانها تنتظر المطر، يكنس"سيد"أمام قهوته وينادى على الصبح ليدخل الرزق ، يقابلنى "محمد بكر" ساحبًا مواشيه مرحبا بعودتى ، صرخ في الحمار الذى يركبه: إخس عليك حمار بن حمار ، قلت بأسى: إزيك يا عم"محمد"؟ نظر كثيرًا فى وجهى وقال: "أهلاً وسهلاً" يا دكتور ، كان حماره شبيهاً بالجحش الذى تركته بشوارع واشنطن.

صحوت من نومى متلهفًا العودة للديار ، وجدت نفسى في الطائرة ، لكن روح "محمد بكر"لم تفارقنى ، أخيرا وصلت القرية ، كان أول المستقبلين ساحبًا مواشيه ، راكبا حماره الأبيض ، شخط فيه ليفسح لسيارتنا المرور: إخس عليك حمار بن حمار ، أقترب من السيارة وقال: يادى النور يادى النور.

"قدم واحدة"

خرج للشارع متأبطًا عكازه بعد الحادث الأليم الذى أودى بقدمه ، مكث بالمستشفى ثلاثة أشهر يعالج من الرصاص الذى ملأ بطن قدمه اليسرى ، وهشم عظام فخذيه.

عاد للحى ، الجميع كانوا حائرين ، سلموا عليه بخنوع ، وقالوا بصوت مكسور: ألف سلامة يا عم"مصطفى" ، يسمع مندهشا نبرة صوتهم المملوءة شفقة ، تتحطم الدنيا من تحت قدمه الوحيدة التى تلامس الأرض ، قال لنفسه: لا يهم ، سوف يتعودون علي سيرى بقدم واحدة ، يجب أن أتوازن مع عكازى حتى لا أقع ، رفع العكاز وخطا نحو المقهى الذى افتقده.

نظروا جميعًا بدهشة ، فكيف لحداد المنطقة الذى يصنع الأبواب الثقيلة ويكتب على باب محله بالخط العريض"مهنة الفتوات" ومنقوش تحتها بخط رقعة جميل إدارة "مصطفى الحداد" أن يمشى مسنودًا على عكاز.

نسوا العركة التى وقعت بالشارع بين أبناء العوائل الجديدة ، تدخل لمنع الأذى عنهم فملأ الرصاص بطن قدمه ، لولا ستر الرحمن لاخترق رأسه وأصبح فى عداد الأموات.

لم يهتم بالمحضر الذى حررته السلطات ، يعلم أن الرصاصة لا يمكن أن تخرج إلا من قلب جاحد ، كان خياله مشغولا بالعودة إلى فتح الورشة مرة أخرى.

استقبله صديق عمره قائلاً:"حمد الله على السلامة يا"درش" وشك ولا القمر ، فرد عليه: عملت إية يا"أبو ضيا" ، أجاب بسعادة: عندك بابين ممكن تشتغل فيهم من الصبح ، نادى على أحد الصبية من الشارع ، قائلاً: عمك"مصطفى" عايزك تشتغل معه فى الورشة!"رد الصبى بتلقائية: "لا أفهم فى الحدادة" ، تدخل "مصطفى" بفخر: "سأعلمك ياض".

سار للورشة متكئًا على عكازه دون النظر إلى عيون المارة ، كان الطريق طويل ، اندهش من نفسه وسط ذهولهم ، وضع المفتاح في الباب ، سمع الجميع صوت الدكان متسارعاً للسماء ، ظهرت المخرطة والمقص وألواح الحديد للمارة ، تأبط عكازه ، استعاد للحظة أيام كان بقدمين ، كاد يفقد توازنه ، أسرع الصبى لإنقاذه ، فخبط العكاز بالأرض يبحث عن مكان ، صرخ فى

الصبى: شد المخرطة عليك شوية ياض ، اقترب من الشباك الخلفى للورشة ، فتحه بقوة ، ليستبدل هواء الورشة المحبوس.

نظر من خلف المخرطة للعدة المبعثرة شمالاً ويميناً ، تيقن بضرورة صنع أبواب كثيرة قبل ضياع العمر ، دخل أصحاب المحلات عليه يهنئونه ، أمسك عكازه واستقبلهم بحرارة ، للحظة سار على قدميه الاثنتين مبتهجا ، للحظة ذهل الجيران من هامته المرفوعة التى اخترقت عقولهم ، ضاعت الأحزان وسط الطاقة الباهرة ودفًأ أحضان المتعانقين ، ضحك الجميع ، أطلقوا النكات والتحيات... أخيرا انزاحت الغمة وعاد الحداد إلى ورشته.

"لحظة بكاء"

مرة أخرى أعود وحيدًا ، متسائلاً : كيف وصلت إلى هذا المفترق الغريب ؟ أبدعت لأخسرهم دفعة واحدة ، تتسرب منى الأحداث وسط برك الدم ، اللغة تتعثر ، العيون تجف ، الطيور تصمت ، الزرع يكف عن التمايل والضحك ، احباءك يتفرجون على انهيارك ، ذهنك يستقبل كل ألفاظهم وإيحاءاتهم ، لتخرج سالمًا دون أن تمس روحك أية قذارة.

قال إمامهم : كيف جرؤت على تخطى حدودك والتنفس دون استشارتى ، أجبت بهدوء: الظروف صعبة ، أحتاج إلى ورثي ، سألنى بعينيه: كيف تجاوزتني وأنت تعلم أنى لا أرغب في القسمة ، أرسلت شعاع قلبي مردداً: العيال تحتاج إلى مصاريف ولا أستطيع تسديد الفواتير ، رد بذهول: وصولجانى وهيبتى ، الجميع يطمع فى الجوهرة التي نمتلكها فكيف تفرط فيها ، أجبت: ليست هناك مشكلة إلا عندك ، لا أحد يجد فى القسمة والبيع أى جرم ، رد بتحد أذهلني ، بعد تحول وجهه إلى شخص آخر: عايز إيه منى تانى؟ أرجوك لا تذكرني بالماضي مرة أخرى.

تذكرت فجأة بيتنا القديم والونس الذى كان يجمعنا حول طبلية العشاء مع الأم ، شممت رائحة طبق البطاطس بالثوم والمسقعة والفول الحراتي ، لَمْ تكن تأملْ سوى بهجتنا وشبعنا.

أخذنا القطار السريع فى الرحلة التى قطعناها سويًّا ثم افترقنا ، تزوج كلٌّ منا ، أصبحت لنا أسر وأطفال وحجرات ، لم نعد نسمع صوت بعضنا إلا في المناسبات السعيدة اوالحزينة ، لم يكن يحس بآلامى ، لم أتحسس طعم الحروق التى ملأت جسده.

لايعلم أن ورشتي أغلقتها بسبب الديون ، أصبح الناس كالفئران لا يمكن أن يعطوك أجرك كاملاً ، يستكثرون عليك جهدك ، مازالت الشرطة تطاردنى لتنفيذ الأحكام لوجوب نفاذها في الحال ، لم يعد لى أمل إلا بيع القيراطين الحيلة ، حاولت محادثته فى الأمر ولم أستطع ، مرات كثيرة أقابله ولم أستطع ، قررت فى النهاية بيعهما دون أن يدرى ، كانت الصدمة قوية ، لم يعد بيننا الآن شيء.

الدموع تقترب من مقلتى ، كيف وصلت علاقتنا إلى طريق مسدودة ، نظرت حولى وسط المجلس العرفى الذي حضر ليضع حدا للصدام فتوقفت الدموع ، العيون المندهشة حولنا ترمقني بذهول ، الشعاع المتبادل بينى وبينه وحديثنا الصامت غطى على لون الزرع ورائحة الثوم.

قام من المجلس هاربًا ، فانفض الناس من حولنا ، أحاطونى واقفين ، ظللت جالسًا حتى عاد ، قبل أن يفتح فمه وينطق لسانه ، قلت: اعذرونى عندى شغل .

الجروح المندملة تتقيح قبل أن يتسمم الجسم ، يجب أن نتألم ، نتطهر من أوساخنا بنار الفراغ ، لا يهم ، ماذا سنخسر ، المهم أن يلتئم الجرح ، لم أكن أدرى أن مجرد التصرف فى أمر يخصني يمكنه أن يفجر كل الوسخ .

تذكرت أمي وهى تعدد لمقتل والدها بيد أبناء عمومتها بسبب الورث ، لم يغفر لأبيها عندهم أن ابنته متزوجة من ابن أخيه الكبير... لكن أمي ذهبت إلى بيت خالتي وصرخت فيها وسط الشارع لتترك بيتهم ، قالت بعلو الصوت باكية: مش حزينة على أبيكِ يا"فاطمة"لسة دمه بينزف على الأرض يا ختي.

ابتعدت عن جمعهم، وجلست وحيدًا أبكى ، نمت يومين باكيًا ، بعدها وجدت نفسى أمرح بأرض جديدة اشتريتها بفاكهتها ، حاولت تذكر أرض هذا الماضي ، لم أتمكن ، كانت الارض الجديدة مزروعة وردًا وقرنفلا ، لم يتخيلها عقلى.

"تفطر ولا نشتغل"

شاهدت نفسى أطير في الهواء عاريًا ، فوجئت برجال آخرين يطيرون عرايا بجوارى يمسكون قضبانهم المنتصبة ، نظرنا إلى بعضنا بدهشة ، كنا إخوة من رحم امرأة واحدة ، أمسكنا قضبان بعضنا البعض بفرح.

وجدت نفسي فوق منزلنا القديم ، وقد ضعوا مكانه مبنى أسمنتيًّا ضخمًا ، واستولي عليه أخي الوحيد بعد موت أمى ، شاهدت عاملاً طويلاً قويًّا يرفع شكائر الرمل ، ينظر ببهجة ناحيتى وأنا أعاشر زوجتى ، أحاول جاهدًا إنهاء المشهد لأقذف سريعًا ، لم أتمكن ، كان العامل يضحك ، حاولت أن أفهم سبب ضحكه ، عجزت ، رغم محاولاتى المستميتة.

صحوت من نومي قائلا لنفسى:"خير اللهم اجعله خير" ، دخلت الحمام ، نظرت إلى المرآة ، شاهدت وجها متهالكًا ، عدت إلى السرير ، فوجئت بزوجتي نائمة ، فقررت ممارسة العادة السرية ، انهيت القذف ، ودخلت الحمام لأغتسل ، قررت النزول للشارع.

اليوم ككل يوم لا جديد ، العمل فى بيوت الناس لم يتغير ، رغم تغير نوع الطوب الذى نقوم ببنائه ، رائحة المونة وطعم الفول والكشرى تملأ المكان.

جلست في ركن المقهى ، أخرجت لفافة البانجو ، خلطتها بدخان السيجارة وأشعلتها ، سحبت نفسًا عميقًا ، دخل"سمير" القهوجى بالشاى أبو حليب قائلا:"مساء الفل يا معلم" ، أعطيته نفسًا ليتركنى في حالى ، قمت متوجها إلى عملي بعد انفصالي عن العالم ، لن أتمكن من استكمال الطريق ، من يوصلنى إلى عملى؟ اتصل بى زميلى قائلاً:"يا أسطى خمرت المونة ، أنت فين؟ " رددت بحزن:"فى السكة".

وصلت الشغل بصعوبة ، دخلت من الباب الخارجى للمنزل ، طلعت السلم على مراحل ، رائحة المونة تستقبلنى ، طعم الفول والطعمية يلازمان لسانى ، قال زميلى:"تفطر يا أسطى ولا هنشتغل؟ " كانت هذه آخر جملة سمعتها قبل نقلى للمستشفى عاجزًا عن النطق.

أعادنى مشهدها للحياة ، رأيتها تقف أمامى ، وضعت يديها على رأسى ، قائلة:"إخس عليك يا"عبد الله" ، كدا هتسبنى أبنى البيت لوحدى" ، كانت تمسك قالب الطوب بيد وتضع بيدها الثانية حفنة مونة ، تحاول أن تبنى حجرة على قطعة الأرض التي تركها والدنا لتقينا برد الشتاء قمت مفزوعًا وقلت: "أقعدى أنتِ يا أمه" ، خلطت الرمل بالأسمنت ، عجنت المونة واستكملت البناء ، وقف أخى مستهزئًا منا وقال: عايزين حته تلمكوا؟... ابقوا تعالوا قابلونى ، وضحك بهستريا وذهب للمقهى.

لم يعدْنى للحياة سوى رؤيتها وهى تقول بكل حنية الدنيا: إخس عليك يا عبد الله ، مين يبنى البيوت ، ويعمر الأرض غيرك ، قوم يا وله.

حاولت تذكر أحلامي وعجزي، زغدتني بحب قائلة: يا أخى قوم ، العيال في انتظارك.

"القبعات الثلاث"

منذ زمن طويل وهو يحمل عبء الحياة فوق رأسه بثلاث قبعات ، الأولى أطلقوا عليها بجفاء "الشغل" ، نعتوا الثانية بالمشاعر ، تجاهلوا الثالثة ، يقوم كل صباح من نومه ، ويجد القبعات الثلاث ممتلئة ، يضعها فوق رأسه ، ينزل للشارع ليوزع خباياها على أصحاب النصيب ، يتساءل بعد مرور السنين: لماذا قبلت أداء المهمة؟

سار بكل الطرق ، موزعًا للأرزاق التى يمن بها الله كل صباح عليه ، دون أن تطرف له عين ، كم مهنة امتهنها ليغير من خلقته! وينساه الرب ، استخدم التحايل والكذب ، استأجر البشر ، اشترى بعضهم ، قتل آخرين ، عشق كثيرًا منهم ليهرب من المهمة المختارة التي ألقوها على عاتقه دون أخذ رأيه ، ورطوه ليستأمنوه على حياتهم وبناموا آمنين ، قال بصدق ليجيب عن نفسه: لا مفر من المصير.

مئات المرات نام حزينًا ، لم يتلق بسمة راضية نتيجة عطائه ، اندهش من قدرة البشر على الحقد ، صادف بشرًا طيبين ، أخذوه في أحضانهم ، وطالبوه باستكمال الطريق لاحتياجهم لضحكة صافية في نهاية النفق.

حاول اكتشاف سر القبعة الثالثة وفشل ، كان دوره محدودًا لتوزيع الحمولة خلال العمر الطويل ، دون النظر أو الطمع فى الفهم.

كانوا يستقبلونه بوجوه بشوشة مبتهجة ، يرغبون في مدهم بالأمل ، اعتاد التساؤل فى الأيام الأخيرة دون داعٍ: لماذا قبلت أداء المهمة؟ تجيب القبعات و الناس في صمت مذهولين من رفض الفقرى ابن الفقرى النعمة.

كم مرة حقق رغبات البشر الحيارى وملأ قلوبهم عن آخرها بالسعادة! كم مرة استخدم الكذب لينعموا بالأحلام الجميلة لمستقبلهم الباهر! طار فوقهم ودخل نن عيونهم وطهرهم من الدنس لزرع النور بأعماقهم.

الآن يتذكر عشرات النساء اللائى أوقفن بث رحيقهن ناحية روحه ، انتهت علاقاتهن بمآسى مفجعة لبخله فى رد اعتبارهم ، لم يصدق أن العشق الذى وهبه الله بقبعة المشاعر يجب أن يتلقى مقابله الثمن ، لم يفهم أن دوره ألا يفرط لأحد ، وأن يعطى بمقابل حتى لنفسه.

الله يعطى دون حساب فكيف يرغب في العطاء بحساب ، رغم ذلك لم تبخل الدنيا عليه ، تمتلئ القبعات الثلاث بالرزق الوفير كل صباح ، يصحو مفزوعًا ليوزعه بالقسط والميزان رغم حقد الجميع على مهنته ، لم يستاء في البداية ، الذى أذهله أن القبعة الثالثة لم يعرف قط مضمونها ، مازالت تخفى سرها حتى اليوم.

حاولوا أن يجبروه على المزيد من العطاء ، حاولوا امتلاك القبعات ليحصلوا وحدهم على الأمل ، لكنهم أبدًا لم يتمكنوا ، لم يغفروا مقاومته ، ليس لأحد أن يمتلك القبعات ، كان على يقين أنه إذا فرط فى قلوبهم ، فسيوقف الرب إرسال المن والسلوى ، وتحرم البشرية من العطاء.

ظل يحلم بمعرفة اسم القبعة الثالثة وسرها المكنون ، حاول تجاوز حمل هذا العبء ، لينام ليوم واحد خلال هذا العمر الطويل دون أن يصحو في الصباح حاملاً عبء توزيع محتواها ، لكنه أبدًا لم يتمكن.

يعطى لكل محتاج ، دون أن يسأل عن هويته ، يعلم أنه مسير لأداء المهمة ، الرزق ليس ملكه ، فصاحب الملك قدر فشاء فوزع وما نحن إلا أسباب لاستمرار الحياة.

لم يهتم بأسئلتهم حول تفضيله أحد إخوته أو جيرانه أو أصدقائه ، كان مشغولاً بتوزيع الحمولة الثقيلة دون هدف آخر ، دون أن يفهم أحد قدره ، تألم لأنهم نكروه ، استكثروا عليه النعمة ، لم يتوانَ يومًا واحدًا عن توزيع ما ترسله الدنيا إلى الخلق أجمعين.

خلال العمر الطويل أحداث كثيرة وقعت ، دماء منهمرة سالت ، مشاعر مرتعشة تدفقت لم يتمنَ استمرارها ، مازال يصحو كل صباح وهو يضخ الحليب ، رغم سؤاله المتكرر دون إجابة: لماذا قبلت أداء المهمة؟ كل أمله أن ينام مثل خلق الله حتى الظهر.

الشىء الذى حيره طوال هذه الرحلة ، ليس كل هذه الأحداث ولا وجوه البشر أو نبرة أصواتهم ، كان جهله بسر القبعة الثالثة التي لو يفهم مكنونها لارتاح قلبه للأبد ، وينام راضيًا مرتاح البال حتى الظهر.

"بلولة الحيران"

تركت زوجته حجرته الصغيرة بمنزل أمه ، رحلت لبيت أبيها ، كان"بلولة" يحاول مداواة جراحه بعد فراقها ، يعود من عمله ، يدخل حجرته وحيدا ، تنادى أمه: جهزت العشاء يابني تعالى كل ، فيرد بصوته الحزين: أتعشيت بره.

كانت مكلومة لأنها تعرف مقدار الفقد ، تحاول أخته ملاطفته فتداعبه قائلة: كويت لك الجلابية البيضاء ، علشان تروح فرح "حنان" بنت خالتك بكرة وتفرج البنات على عيون أحلى الجدعان ، يرد مكتئباً: هتأخر بكره شوية علشان هشطب الشغل.

لا يحس "بلولة" بالفجيعة إلا حين ينام على السرير دون أن ترفسه قدم"أم رضا" ، كانت "عزيزة"ككل النساء تحاول جاهدة أن تسعد زوجها ، تتلافى المشاكل مع إخوته المقيمين معها لتتمكن من تربية ابنها الوحيد ، كانت كلمات"أم بلولة"القاسية تحطم قلبها خاصة حين تتدخل أخته لتسبها بأقذع الشتائم.

سرحت "عزيزة" أمام حنفية المياه بوسط البيت فتذكرت الليالى الأولى مع "بلولة" ، اندهش أخوها لإحساسه بقلبها النابض ، نظرت زوجات إخوتها بغل لقتل روحها الدافئة ، قالوا بصمت في مواجهتها: يا مره يا بور... يا عايبة.

منذ حضورها غضبانة من عند "بلولة"وهى تقدم لهن كل الخير ، تتلاشى نظراتهن الشامتة ، تخبز وتكنس البيت حتى لا يعيروها بأنهم يحمونها من كلاب الشوارع.

تغسل الحلل والأطباق لتجهز الفطار، كن زوجات أخواتها ينظرن إليها بشماتة ويضحكن ، ولا تحس بالفجيعة إلا عند النوم في حضن أمها ويتوسطهما ابنها "رضا" دون سماع شخير"بلولة" ، كانت أمها تبكى على المرار الذى تشربه على يد أبنائها وزوجاتهم ، لم تشتك لأحد حتى لا يعايرها إخوتها وجيرانها بالخيبة.

فى اليوم الأخير نظرت "عزيزة" إلى السماء وهى تقف أمام البيت ، ناجت ربها ليمن عليها بالستر وتعود إلى حجرة "بلولة" تخدمه و ينام ابنها في حضنه ، باغتها أخوها منادياً عليها وهو يركب حماره الأسود لترفع أجولة السماد أمامه قائلا: ارفعي يا "عزيزة" الشيكارة ، أومي ياختي.

استكملت زوجته: يا بت مدى شوية ، الرجالة فى الغيط مستنيين الغدا ، لم تسمعهما ، أخذت روحها السماء الواسعة المفتوحة ودارت دورتها لتعيدها إلى حجرتها في حضن"بلولة" ، لم تسمع نداءات أخيها ولا حقد زوجته ، كانت سعيدة للحظة.

اقتربت زوجة أخيها منها ، شدتها من صدرها ، كادت تفتق جلبابها الأزرق الوحيد ، كانت "عزيزة" بثقب السماء تعاشر"بلولة"بحجرته و"رضا"يلعب حولهما مبتهجا.

لم تحس"عزيزة" بنفسها هذه الليلة ، رفضت أن تكنس المنزل ، ادعت أنها متوعكة ، نظرت نساء إخوتها بغيظ لردفيها ، لعبوا حواجبهن وأيديهن وشفاههن بحركات تنم عن الرذيلة ، لم تكن معهن ، كانت مازالت فى الثقب الأبيض المفتوح بالسماء ، تسمع وتشاهد اليمامة التى تقف على شباك حجرتها ، تغنى" لرضا و بلولة"فى حب.... كوكوكو.

فى هذه الليلة أخذتها أمها في حضنها ، دعت لها بالفرج ، سمعت صوت"بلولة"رغم دخول الليل يدخل لمنزل والدها مع بعض الجيران ليعيدوا "عزيزة" ، تمسَّك أخوها الكبير بعدم عودتها بسبب إهانة أمه لكبرياء أخته ، صرخت أم"عزيزة" وقالت للأخ الكبير: ستعود لزوجها وحجرتها ولن تخدم زوجتك مرة ثانية.

بكت "عزيزة" ، وجمعت ملابسها ، وأعطتها "لبلولة" ليمر وسط جمعهم حاملاً "رضا" وملابس "عزيزة" فوق رأسه عائدًا إلى حجرته.

"أحلام العودة"

رأيت أبى الذى مات منذ سنوات عديدة واقفًا أمام باب منزلنا ، ينادى علىّ كى أدخل: سبت إيه لأخوك الصغير ، لما تشتغل شغلته ، يعمل إيه لما يصح الصبح ميلقيش حاجة يعملها.

رأيت النهار مظلمًا والأحياء محبوسين بأفران يحاولون الخروج ، ينادون على المغيث ، الأموات واقفون خارج الأفران مبتهجين ، لا يحسون بالنار المشتعلة في شعورهم ، لا يشمون رائحة شياط أجساد أقرانهم التى التهمتها النار.

ما هذا الرعب المنتشر حولى؟ اختلط الحابل بالنابل ، الموتى بالأحياء ، قلة الحيلة بالرزق الواسع ، الحب بالحقد ، هذه الخلطة العجيبة التي جعلتني أسافر إلى عالمهم لأفهم ما يجرى بعقولهم.

صرخ أبى فجأة: كُلْ معانا ، رددت بخوف: ليست عندكم أطعمة لأحياء مثلى ، لا يوجد هناك إلا القرص والكعك ، قبل ذهابي للبيت الليلة الماضية اشتريت نصف كيلو كعك ، كان أولادى وزوجتى نائمين ، فتحت التليفزيون على القنوات الخليعة ، تعرض قناة النت رقصات لنساء تتفنن فى هز الوسط والنهود والأرداف ، انتصبت عن آخرى ، قلت لنفسى: سأستكمل حياتى معربدًا بين النساء ، رافقت نساءً كثيرات ، رأيتهن لمرة واحدة ، أخريات ارتبطت بهن لفترات طويلة ، قذفت فى فروجهن جميعًا.

قلت لنفسى: تحمل قسوة الحياة ، الله يختبر رغبتنا ، لم أكن أصدق ما يجرى حولي ، قررت أن أتصل بأحد أصدقائي ، الوقت متأخر ، الساعة اقتربت من الثانية ، لن أزعج أحدًا ، سوف أنام ، لن أتذكر أبي مرة أخرى ، قذفت على نفسى مرة أخرى لأمحو منظره الغاضب ، غيرت القناة إلى قناة أخرى أكثر خلاعة تسمى الفرح ، كانت الراقصة تتمايل حول المغنى لتغريه بالاقتراب من حجرتها الملاصقة بالبحر ليعاشرها عارية .

أغلقت باب الشقة جيدًا ، أَطفأت الأنوار باستثناء لمبة الباب ، نمت في السرير الواسع ، حاولت استدعاء أمى وجدتي وجدى ليرشدونى للطريق ، لم يأت أحد ليؤنس وحدتي ، عاد مرة أخرى ، كان يحوم داخل منزلنا القديم ، وقفت أمام الباب ، حاول أن يدخلنى لآكل معه ، دخلت

متوجساً ، وجدت أخواتى البنات مجتمعات ، لم أتعرف على ملامحهن ، قال أمامهن: أين حق أخيك الصغير؟

شاهدت نفسى ميتًا ، حملونى على الخشبة ، ساروا في الشارع ، شاهدت جارنا المتوفي "مصطفى يوسف" واقفًا أمام المنزل يعزى أبى فى موتى ، قلت لنفسى كيف أقابل أبى الميت وأموت ، ويعزي في وفاتي" مصطفى يوسف"الميت !

روحي مازالت محبوسة داخل كرة حديدية مظلمة مغلقة ، حاولت الخروج ، كسرت سقفها ، طرت بعيدا ، الظلام مازال يحيط بها ، قلت لنفسى: إنه عالم الأموات ، لا يهم ، يجب أن أستكمل الطيران للنجاة والعودة للحياة.

وعيت بنفسى بين الحلم واليقظة ، أحاول التقلب يمينًا في سريري حتى يتغير الحلم ، لكننى مازلت طائرًا أحيا وسط الظلام ، أتقلب شمالاً ، لا أمل ، مازال الظلام يحيط بالمكان.

جاءنى الشيخ"فرج" جارى السباك المتدين ، المتفنن فى الوقيعة بين الناس ، يحمل فى يديه كيسًا مكتوبًا عليه المودة ، أعطانى الكيس وضحك في وجهى فانقشع الظلام.

فجأة دخل"سالم" جارى تاجر السلاح ، أظلمت الدنيا بعد إطلاقه خزنتين من بندقيته الآلية ، فوجئت بسجوده أمامى ، وضع بندقيته في حجرى وقال: اغفر لى ، أمانة لا تؤذينى ، تركنى بعد أن امتلأ الشارع بالورد.

دخلت إلى الحارة المقابلة لمنزلنا ، قابلت الحاج"شيمي"جالسًا على دكته كالعادة وحيدًا ، نادى علىَّ ، كان عاجزًا عن الحركة وقال: بالأمس شلت قدمى ، لم يتبق إلا لسانى ، أعاهدك على ألا يتفوه بإيذاء لأنسيٍّ أو جنيٍّ مرة ثانية.

احتضنتنى"عايدة"بائعة اللب والترمس وقالت باكية: من الليلة سوف أبيت معه وأجعله سيد الكون ، هجرته لأنه لايصرف علينا ، لن أجعله يشم إلا رائحة البنفسج حتى لو ظل جيبه خاويا للأبد.

صرخ "سعد" الحرامى أشهر لصوص منطقتنا ، والمتهم فى مائتى قضية شروع في القتل ، قائلاً في وجهى: أخذ الله ابنى بجواره صباح الأمس ، حمدت الله على البلوى ، عاهدته على أن الباقى من العمر لن يمر إلا إذا ملأت قلوب الضحايا بالصبر.

حضروا ببهائهم جميعا هذه الليلة ، مشو في النور الذى غطى السماء ، بدأ متسرباً من حارتنا لينشر الخلاص فى الكون ، فجأة انطلق رنين الموبايل: يا قلب يا عاشق الحب ، إياك أن تهرب بعيدًا عني ، صحوت من حلمى ، كنت سعيدًا لأننى مازلت حيًّا ، وجدت ابنى مازال نائمًا في سرير أخته ، تحسست وجهه ، مازال قلبه ينبض ، أخذت كعكة، وأكلتها رحمة ونور على المفقودين ، وناديت عليه بصوت عالٍ ليلحق مدرسته.

العصافير كانت تغرد فى السماء فوق سور البلكونة ، تذكرت ضرورة اتصالى بإخوتى لأطمئن عليهم ، كان ابنى قد انتهى من ارتداء ملابسه ، نظرت إلى المرآة ، تحسست وجهى ببهجة ، وقلت لنفسى: مازلت حيًّا.. مازلت حيًّا.

"الرسالة وصلت"

أحمل الكيس وأسير متجاهلا مصيري ، حلفنى بأمى لأسلمه لصاحبه فى البلاد البعيدة ، قال: يقف هناك في انتظارك ، الطين لطخ وجهها ، ويمسك فأسًا بيده ويضع على رأسه شالا أبيض ، حافي القدمين.

ستجده جالسًا في مقهى صغير مخصص لتجمع الأرزاقية ، لن يتوانى عن النظر فى عينك بعتاب لتأخرك ، ستدمع عينه حين تأخذه في أحضانك ، لم يكن يتوقع حضورك ، ستخلق الأعذار وتحكى القصص التى حالت دون وصولك في الميعاد .

ستمشى وتركب كثيرًا ، ستقابل لصوصًا وقوادين وخائنين وأنبياء وزاهدين ومخلصين ، لكنهم لن يثنوك عن توصيل الأمانة.

مازالت كلماته ترن في أذنى ، مازلت محتفظًا بكيسه ، لم أجرؤ على فتحه أو البحث في عمقه عن الرسالة.

لا يهمنى معرفة الشخص الذى سيتسلمه ، أو محتوى الكيس ، في الأيام الأخيرة أحسست بالتعب ، شعر الرأس شاب والقدمان لم تعودا تتحملان الجسد الثقيل ، أرهقتني الحمولة ، سألت نفسي: لماذا قبلت ذلك ، وهل تستحق الرسالة أو الشخص الذى ينتظرنى كل هذه المخاطرة؟

حام حولى وأنا نائم بجوار حائط الجامع بعض اللصوص تشمموا خوفى ، قال أحدهم: ممكن تولعلى ، اقترب الآخر منى وقال: معاك كبريت يا حاج ، تقدم ثالثهم ناحية الكيس وسألنى: فيه أكل دا يا عم.

فجأة ظهر أمامى وقال بصوت عاتب: الأمانة في الكيس ، يجب أن يتسلمها صاحبها على المقهى فى البلاد البعيدة ، ينتظرك لتنام باقى العمر مرتاح البال ، حملت الكيس وهربت مختفيًا نحو المجهول ، ابتعدت عنهم ، واجتزت الظلام والليالى الطويلة.

لم يتعود قلبى الحزين كل هذه البهجة مرة واحدة ، الطبول تدق بالقرب من خطواتى ، النساء تزدهر بألوان ملابسهن الفاتحة كزهور في شجرة الورد.

زجرنى رجل أسمر طويل يلبس جلبابًا أزرق قائلا: لازم تتعشى الليلة عندي ، ده فرح بنتى الوحيدة ، البلد كلها معزومة ، دخلت بحذر إلى حجرة واسعة واضعا الكيس بين ضلوعى ، تفحصتني عيون الجالسين على مائدة الطعام ، قال أحدهم: الكيس مملوء بالذهب ، أخرج آخر مسدساً وأشهره فى وجهى لأضع الكيس على الأرض دون خوف ، أحاطتني الوجوه القبيحة من كل اتجاه ، صرخت خارجاً للشارع: إلا الأمانة ياولاد الكلب... دهشوا إذ كيف لحامل الكيس العجوز أن يخرج سالماً آمنًا متجاوزا شرهم.

نمت تحت شجرة توت وارفة ترمي بظلالها الخلابة لتكسو الأرض ، اقتربت من جذعها ، وضعت الكيس تحت رأسى وأغمضت عيني ، شاهدت روحه بمقهى العمال ، تعرفت عليه ، احتضن قلبى ، سلمته الأمانة ، كان سعيداً منتشياً بنجاحي ، كان يبكى مبهورًا بإخلاصي.

"كوبا برتقال"

قال صديقى إنه يريد الدكان المغلق بمنزل والدى ، بسبب ظروفه وحال البلد الواقف ، أكد أنه سيفتحه بقالة ، مكتبة ، أى حاجة ، المهم أن يجد مكانًا يرتاح فيه ، البيت ضاق عليه والعيال كبرت ، سوف ينفجر قريبًا إن لم يجد مكانًا آخر يخرج ويعود إليه ، قلت له: المفتاح معاك والدكان بتاعك ، نظر بحقد وقال: معلش يا صاحبي الظروف صعبة ، قلت: وتوب المسيح الحى الدكان ملكك.

اتصلت أختى بعد مغادرته ، لم تحدثنى بأمر الدكان ، قالت: إن حماتها بتموت ويجب عليَّ زيارتها ، حتى لا يعايرها أهل زوجها بأنها مقطوعة من شجرة ، دون سؤال عن سبب ذلك قلت: سوف أزورها غدًا بالمستشفى ، سمعت صراخًا وعويلاً بالتليفون ، فسألتها بدهشة: ما هذا الصراخ يا"مارسيل"؟ ردت باكية: حماتى تعيش أنت.

قابلني زميلى بالعمل بعد ساعة من مكالمتها ، صرخ في وجهي:"محمد" زميلنا أصيب بجلطة أفقدته نصف جسمه ، استغربت قائلاً: كيف حدث هذا ، رد بهدوء: طلبات البيت كثيرة وأنت عارف المرتب ، قلت: لأبرر ضعف تفسيره للشلل: ما كلنا فى الهم سوا ، صرخ بتشفٍ لاأدرى سببه: فيه ناس كثيرة باردة ورائحتها فايحة ومبيهمهمش حاجة ، لكن"محمد"أنت عارفه حساس من يومه ، حين قال له ابنه هذا الصباح: عايز فلوس الدرس ولم يتمكن من تلبي طلبه ، انفجرت دماؤه وتوقف القلب عن ضخ الدم .

أعود مرة أخرى إلى المرأة التى أرافقها وتخفف عنى آلام الطريق ، أعود لأنظر إلى عينها وهى تحيطنى من كل جانب و تعطينى الأمان ، كاد عقلى ينهار ، لكننى قلت لنفسى:"فلتذهب برحيقها البديع وتتركنى وحيدا أواجه الموت".

كانت تضغط عليّ لأوافق على تحديد مصيرها ، كنت أعلم أنه حقها ، ولا يمكن مناقشتها ، ضغطت على قلبى حتى انفجر.

"عائشة"هى الأمل الباقى ، كنت أختلى بها كلما سنحت الظروف من وراء أهلها فى شقة أمى القديمة بشبرا ، كانت تعلم أن راتبي لا يكفى بيتى ، تحايلت على الحياة ، عملت بعد الظهر

فى محل بويات لـ"مينا" قريبنا ، بعد عدة شهور تعلمت الألوان ، رسمت بفرشتى على حوائط الشقق ، ضاعف أجرى ، منذ فترة قليلة أغلق "مينا" الدكان وانقطع الرزق ، لم يعد معى ثمن كوبي برتقال فى كازينو البحر ، لأستمتع بوجهها الملائكي.

حاولت كثيرًا أن تتدخل أسرتي ، غيرت دينها لأتزوجها ، كنت أجبن من إعلان ارتباطي بمسلمة ، أعلم أن أسرتى وإخوتى سوف يتعرضون للقتل ، لن يصدق أحد أن امرأة تغير دينها من أجل رائحة رجل مسيحى ، حذرتها كثيرًا ، لكنها أبدًا لم تفهم خوفى.

تعلم أننى ضعيف ، لا أريد تحمل مسئوليتها ، أدعى كذبًا بأن المتدينين يمكنهم قتلى إذا علموا الخبر ، تعلم أنى جبان ، كانت تتحدانى ، أعرف أنها ليست ساذجة لتتركنى أفلت من حبائلها ، أدرك أننى لن أتمكن بسهولة من الخروج الآمن من محيطها ، قلت لنفسى: لا يمكن أن تأسرنى ، فى الحالتين ستكون نهايتي.

حين نظرت إلى "مريم" و"عيسى" ابنيَّ ، قلت لنفسى :فليأخذ الدكان ويشمت صديقي ويتوقف الدم بقلب زميلي؛ لأنه ليس هناك ما يدعونى لأن أستجيب لطلبها، لا يهم أن أفقد روحي ، لا يهم.

"نعمة الرضا"

بين الطمع والزهد مساحة ضخمة لا يمكن تجسيرها برغبة وأمل ، يرفع الزاهد طوال العمر أطنان الزبالة لينظف الدنيا ويجعل الشوارع جاهزة للضحك ، لكن الطماع يبتعد لحوارٍ قذرة ، كلما رفع طن زبالة ، وضع كميات أكبر ويقول فى براءة: ارنى قوتك ، ارنى نجاحك ، هل يمكن أن تعيدها نظيفة؟

يضيع العمر ويجنى الطماع التوحش والرغبة فى المزيد ، يكمن الحقد فى قلبه ، فيقول لنفسه رغم رزقه الوفير: مازال معه الكثير لأستولى عليه ، مازلت أحتاج إلى بناء البيت وشراء الأرض و تغيير السيارة والشقة ، يظل سلسال الاحتياج ورغبة الاستحواذ تتفاقمان بقلبه كلما أعطته الدنيا.

يرى الزاهد الدنيا جميلة ، راضيًا بمصيره ، حامدًا ربه على نعمته ، يقول لنفسه: أكثر من كده يبقى كفر ، يقف على جبال عالية ، ينظر إلى السماء الواسعة ، يشكر نسمة الهواء التي تعيد حياته ، يأخذ كوب المياه على فمه متلذذًا بطعمها الخلاب ويقول: ما أجملها تلك الحياة !

يقف الطماع خلف الجبال يعد فى مواشيه وآلاته وناتج أرضه ومصانعه ، يعيد حساباته الخاطئة ، رغم الأموال الزائدة ، يقول لنفسه: مازلت أخسر ، يفكر فى إبداع طرق جديدة لوقف نزيف الخسارة ، يسلب البشر أرواحهم ليعوض نقصان غنيمته ، يستمد قوته من الحقد على الآخرين لراحة بالهم وشعورهم بالاكتمال.

بين الطمع والزهد شعرة ، يمشى عليها الإنسان منذ ميلاده كالأعمى ، تأخذه الدنيا ، ترميه بقلب الطمع لتتعرف على معدنه.

هناك مسافة طويلة يجب أن يقطعها الاثنان ليتقابلا فى النهاية على الشعرة ، يسيرا معًا ، فينخدع أحدهما ويطمع باللقمة التي بيد الآخر فيهوي إلى قاع الجبل نادمًا على الخسارة مستاء من حظه العاثر.

يسير الزاهد على الشعرة مغمض العينين ، يعلم أن خصمه يرصد أنفاسه ، حاقدا على رزقه الوفير ، بينما يقع الطماع باستمرار مؤمنًا بأن المصالح الكثيرة تحتاج إلى عقله الكبير لوقف الخسارة بالانقضاض على بهجة و رضا الزاهد .

أمل البشر منذ بداية الخلق في النجاة ، يخسر الطماع دائمًا ، يحقد على عدوه الذى يحيا فوق الجبل ، يستمتع بالبراح ، مستكثرًا عليه نعمة الشكر ، يرمقه بكرهٍ حين يتنفس بتلذذ قائلاً ببهجة للناس: وأكثر من كدا يبقى كفر.

مشهد لن أنساه أبداً ، طالما راودني وأعادنى إلى رشدى ، رجل كان يعيش ببلدتنا ، منَّ الله عليه بنعم كثيرة ، فجأة ودون مقدمات حرمته الدنيا كل شىء ، ماتت جواميسه ، فحمد ربه على الأرض التى تنتج الخير ، سلبوه أرضه ، فشكر الله على سقف حجرته الذى يحميه برد الشتاء وحرارة الصيف ، هدموا البيت ، ابتهج لنعمة الصحة التى تقيه شر الحاجة ، قطعوا يديه ، فحمد ربه لتركه يمشى بين الناس ، قطعوا قدميه ، ابتهل بالشكر على قلبه المضئ بنوره البديع ، فقأوا عينه ، ابتهج لاستمرار روحه الممتنة المنطلقة بالحياة ، قطعوا جسده ، فنجا بروحه بعيداً يستمتع بالبراح.

هذا الرجل ما زال يأتينى ، كلما حلت بى مصيبة.

"ضياع الرحمة"

يمشى خلف البطة ويترنح ممزقًا ملابسه ، يجرى ويطير ، يبارك البشر ، يرمقهم مبتهجين بحضوره ، وجهه يمتلئ بالأسئلة ، هل عاشر الأموات ، ينتظر أن ينادى المؤذن على الفلاح ، يضحك على غير عادته بروحه المرحة ، حين رآنى ، قال: أين كنت؟ ألف حمد لله على السلامة ، ينتظرنا البيت ، أجرى خلف الباص غير مبالٍ بصوته.

تظلل الشمس على الأنهار ، تفوح المياه برائحة البنفسج ، تجرى حول المدن لترويها ، مازلت أتساءل ببراءة: من أنا؟ أمشى بعيدًا فى الشارع ، يقابلنى التوكتوك ، أركبه وأسير في الحوارى والبيوت ، أقابل عشرات الوجوه البشرية التى تسعى لرزقها ، فجأة تناديني لألتقط روحها ، وأتذكر وجهها وهى تقول كلمتها الأخيرة: "أنت متستهلش".

تركتها بشقتها ، ونزلت درجات السلم مذهولاً ، قلت لنفسى: نعم هناك بشر غيرك يستحقون ، سأبنى منزلاً وأوزع إيجاره على المحتاجين ، كادت كلمتها تمزقنى ، أنت لا تستحق الرحمة ، بصقت في وجهي ، دائمًا تعطى وأنت تأخذ بالطول والعرض وقتما تشاء ، دائمًا تأخذ ، لا أحد يستطيع منعك ، دائمًا تفرض شروطك من أجل عطاياك ، هكذا قالت قبل قولتها الأخيرة :" أنت متستهلش".

أخذتنى قدمى مرة أخرى لأركان قلبى النائمة ، لأعيد السؤال على نفسى:"لماذا كل هذا الضياع"؟ لم أعثر على الإجابة ، لا أعرف العيش دونهم ، حياتى تضيع دون طائل ، لماذا فتحت الباب المغلق منذ آلاف السنين؟ أشياء كثيرة كانت بانتظارك ، لكنك ترغب فى هدم المعبد فوقهم جميعًا ، كأنهم السبب فى ضياعك.

حاولوا قدر ما يستطيعون أن يحافظوا عليك ، مع ذلك لم تتردد فى فعصهم بحجة جشعهم رغم أنك لا تحتاج إلى شيء ، ترغب في إزالة الشوارع وشفط المياه ليموتوا عطاشى ، لماذا تتوقف الآن وتتذكر كلماتها الأخيرة.

سآخذ العسل من المنحل في الصباح وأوزعه على البشر المحتاجين ، لينالوا السلوى ، لكنهم سيعيدونه؛ لأنهم لا يحتاجون العسل ، يحتاجون حقوقهم ، هل يمكن تقديرها بالأموال أو

بالمشاعر ، هل يمكن تقديرها بأى ثمن ، يحتاجون مقابل الحب الذى أعطوه لك ، هل تستطيع أن ترده لهم؟ لا أعتقد ، لأنك يجب أن تأخذ للأبد ، ولا يمكن أن ترد لأحد جميله حتى لو حبستك الشياطين دهوراً وأخذت روحك ، لأنك مؤمن بأنك الأفضل ، ليس لأحد فضل عليك ، الجميع يحتاجون ثمن ذلك ، كيف وصلت إلى هذه القناعة ، يحتاجون الثمن أيها الجنرال ، كنت تأخذ مقابل عطائك ، اليوم تمشى وحيدًا معدوم الروح ، أترغب في إخراجهم مرة أخرى من الجحور ، أما تتجاوزهم للبراح الواسع.

حين قابلني بعد مرور السنين الطويلة قال: أنت عدت أهلاً وسهلاً ، كم مرة قلنا لك عُدْ ، اليوم ترغب فى البقاء معنا ، أهلاً وسهلاً ، أتحتاج جثثًا أخرى لتمشى عليها وتكتب مشاعرك ، أتحتاج أن تشاهد بقايا غلهم ، لتسجل أحلى اللحظات البشرية ، أتحتاج قلوبنا لتأكلها.

تداخلت الصور وهو يدارى انهياره ، لم يكن يصدق أن ابنه الوحيد الذى عاش حياته كاملة ليحميه شر الدنيا يمكن أن يرفع عليه السنجة ويشج رأسه ، لم يمنع قتله سوى الجيران الذين كان دائمًا يحذرهم من شره.

نقلوه إلى المستشفى ، خيطوا رأسه الذي نزف كل الدم ، سأله الضابط: من حاول قتلك؟ رد وآثار البنج مازالت تخدر جسمه: ابنى ، عاد الضابط ليسأله: ما اسمه؟ أجاب بدهشة: "جمال"، ألا تعرفه؟ شخط الضابط في قلبه رغم البنج ليرفع صوته ، وكرر السؤال بغضب: أين يقيم ، قال بخيبة أمل: في حجرتى .

لم يسأله مرة أخرى ، اعتبره في غيبوبة ، وأخرج قلمه ليوقعه على الأوراق ، فقال: لا أعرف الكتابة ، بلل إصبعه الكبيرة بلسانه ، جرف عليها بحبر قلمه الأزرق ، أمسكه بقوة ليضع بصمته على التنازل ، شاهد الضابط يلف البصمة ويكتب حولها حروفا شبيهة باسمه.

حين خرج من المصحة لم يجده بالحجرة ، ذهب للقسم يستنجد بهم ليطلقوه ، قال: إنه ابنى الصغير ، أنا غفرت له ، رد المأمور: تستاهل الحرق نحن لا نغفرلأحد ، صرخ باكيا: إنا كذاب لم يطمع "جمال" ، جروه داخل الحجز ليعيش مع ابنه ، كانت الدموع تملأ مقلتيه ، احتضنته قائلاً: "اغفر خطيئتى".

"تجاوز الحب"

ليس هناك مفر ، أنت جزء من المعركة ، لن يعفيك وقوفك متفرجاً أعلى الجبل ، حاول أن تنظر عليهم كل يوم ولو ثواني معدودة ، لتشاهد بنفسك ما آل إليه البيت ، أنت تعرف أنك هدمت كل الثقة ، جففت بحر المودة الذي كنت تغرق فيه، في المشهد الأخير قال: لا تثق بى مرة أخرى... أنا أخونك.

احتضنته ، اعتذرت لأننى شككت فى نيته الطاهرة ، قال: غور في داهية ، أهدرت ما بنيناه فى سنين ، أراد أن يعطينى الدرس كاملاً ، فاستكمل هدمه:"عندما تشك يجب أن تجهز نفسك للمواجهة" ، إذا أردت أن تملكها فستخسر كل شىء ، هذا هو القانون ، ليس هناك أحد كامل ، كلنا مذنبون ، أراد أن يعلمنى بالصدمات ، فسألني بدهشة و هدوء: من أنت ، أنا لا أعرفك؟ لن أقابلك ، لن أستجيب لطلباتك ، لم يعد بيننا شىء ، افعل ما تشاء ، فتح باب المواجهة كاملاً ، ليشاهدني مصروعًا ، أعطيته حياتي فنكرني وطعنني ليموت راضيًا عن نفسه.

لا يهم ، حتى لو أخذ كل شىء ، المهم أنه نجح فى تخطى حاجز الشك الذي بناه بحسن نية ، قررت تجاوز الحائط ، ظل سنينًا طويلة يدربنى لأتخطاه ، عندما فعلتها ، قال مبتهجا: نلت ما ترغب ، لن أعطيك شيئًا ، افعل ما تشاء ، طريقنا مختلف.

أطلق مسدسه على رأسى ، دون أن يدرى بأن الطلقة سوف تطول قلبه ، لا يهم ، فسوف يدعى بأننى السبب فى قتله ، لم أكن أقصد ، لكنى قلتها ، ليطلق رصاصته الأخيرة على جدران قلبي، سأعيش بعد اليوم ضد إرادتك ، أصيب بالخيبة ، تيقن بصحة وجهة نظره.

فجأة يعاودنى تساؤلها حين قالت بكل بساطة: لماذا تفعل ذلك؟ قلت دون تردد: أريد العيش دون إملاءات ، أجرى وأمرح وأستمتع بشهيقي ، يخرج للهواء دون أن يعرف حجمه أحد ، الحياة بعيداً عن القيود متعة ، لماذا يرغبون في حرماني البراح ، سأحكى راضيًا عما بيننا رغم الفجيعة.

أليس من حقى استكمال حياتي مثلكم ، لأضحك في وجه الدنيا ، باحثا بين جنبات قلبى عن رحيق الأزهار ، أتمادى فى الخطر لأعثر على الرحيق العذب ، أدخل فى صراعات حقيقية حول وجودي ، لم أتخيل قط الحصول على إجابة شافية ، أمشى بعيدًا ، أدور حول الحديقة باحثًا عن رائحة الوردة التى لم تنتجها هذه الأرض ، لماذا لا أقبل بكل الروائح الأخرى ، سلمتني وردة ذابلة ، فعرفت

سبب موتى ، قلت وقلبى ينطفئ: أيوجد أحد غيرى يستحق روائحك النضرة ، ردت بسخرية: ألا يكفيك كل تلك الروائح التي امتصتها روحك ، ألا يكفيك.

أين هذه المرأة التى رافقتها عمري كله ، أيمكن أن أعثر عليها مرة أخرى ، أتذكر لونها البرونزى الخلاب وقت الغروب ، أتذكر لون شعرها الملفوف بتوكة ليمونى على شاطئ بحر الأسكندرية ، حين جاءت إليك هناك ودخلت في حضنك بأمان ، لتشم رائحتها العذبة ، فاجأتك ودخلت حجرتك الملاصقة لباب حجرتها بالفندق العالى وقلبها ينبض بالنور.

جلست وحيدًا راضيًا بوجودها جوارك ، أرسلت الرحيق لينيبك ، كانت تلبس قميصا أسود ، تضع الكحل حول رموش عينيها ، يظهر لون شعرها الأحمر بفعل الحناء من تحت إيشاربها الأبيض رائعاً.

اقتربت من الكنبة التى تجلس عليها ، فكت حمالات وأكتاف القميص ، فظهر نصف نهديها المائلين للسمار بينما مشدها الأزرق يناديك ، نظرت إلى عينك قائلة: اقترب منى لا تخف ، تحسست شعرك وخدك ، فكت أزرار قميصك الأزرق ، سحبتك على الأرض ، مالت على فمك بشفتيها لترتشف رحيق الحرمان.

لامس نهداها صدرك ، أزاحت يدك قميصها ، ظهرت عارية كحورية ، اقتربت والتصقت بروحك ، تحسست فخذيها وردفيها وصدرها بفم مفتوح غير مصدق وجودها مرة أخرى بحضنك ، ملأ عطرها الحجرة ، نزعت برفق بنطلونك ، سحبت كلوتها الأحمر حتى ركبتها ، تشممت فرجها الناصع ، كان باهرًا بملمسه الناعم ، ترتعش كلما اقتربت أكثر ، ترتعش وتشدك لتنام فوق جسدها ، لامس قضيبك فرجها ، لم تنطق ، فتحت يداك شفتيه ، سال شبقها على لسانك ليطهرك ، غذى عطرها روحك ، تركتك تضعه برفق ، غادرت الحجرة لأعلى الجبل ، كان تلذذها وصوتها كفيلين بإعادة المشهد عشرات المرات ، فى تلك اللحظة عرفت معنى حقيقة صراخها المستمر: هل أستحق... هل أستحق؟ !

"مسحوق النساء"

بهرتنا هؤلاء النسوة وهن يعبئن مسحوق الغسيل داخل الكراتين ، يختِّمنه بختم المصنع المضاهي للعلامات والألوان ، تحمله السيارات وتبيعه بنصف الثمن على اعتبار أنه الأصلي.

يخرجن منذ الفجر للعمل فى مجموعات بالمخزن المفتوح على السماء لغش المنتج الأصلي وعمل بديل مغشوش أفضل منه.

يمررن بطرق متربة وسط بيوت مبنية بالطوب الأحمر والأسمنت وضع أصحابها علي أبوابها الحديدية أقفالاً قوية حتى لا يفتحها اللصوص رغم عدم وجود أى حياة بداخلها.

انتشرت بمنطقة عملهن الأسوار الملتفة حول أراضٍ كانت تزرع الخضر ليصنع الجيل الجديد الأغذية والملابس والمستلزمات الطبية ، وكل شيء مضاهٍ للبضاعة الأصلية ويباعونه بنصف الثمن؛ لأنه المضروب ، ويشتريه الناس لأنهم يعلمون أنه مثل البضاعة الأصلية مغشوش.

أحاسيس مرهفة لثلاثين امرأة تضيع وسط الكراتين بمخزن المسحوق ، يفاجئك أحدى أصواتهن من خلف سور المخزن وأنت تسير بجواره يغني لوردة: "أكدب عليك".

يتلحفن بالفضاء ويختفين وسط الأكياس ، يعبئن المسحوق ، يختمنها داخل حجرة اللصق ، وتدور عجلة الإنتاج التي تفرم مشاعرهن بضرواة وهدوء كأنهن عجين الحياة.

ينظر الناس المحيطون بالمخزن إلى هؤلاء النسوة كغوانٍ ؛ إذ كيف لامرأة أن تخرج من منزلها منذ السابعة حتى حلول الليل ، وتختبيء خلف الأسوار لتغش البضائع ولا تكون داعرة! يمشين بغضب وسطهن ، ويضحكن بصوت عالٍ غير عابئين بقلوبهم المهزومه .

البيوت القش والرجال المكسورون والغيطان التي اختفت ووُضع مكانها مخازن الغش ، والفلاحين الذين تحولوا إلى تجار أسلحة ومخدرات وسماسرة أراضٍ وبيوت وقوادين وقساوسة وحجاج ، وملأوا الفضاء بالدناءة ، لم يخفن هؤلاء النسوه التي ظلت مشاعرهن وسط هذا الخنوع تنضج بالبراءة خلف الأسوار.

تقبلت "أمينة" الوضع ، لم تطاولها الحسرة على جمالها الفتان ، وحضورها الخلاب ، لم تطالب برد الاعتبار رغم طلاقها وتحمل مسئولية أطفالها ، كانت عيناها مملوءتين عزة ، لم يتوقع صاحب المخزن نظراتها المستاءه، ولم تهتم بتلميحات جارها الملتحي لتغطية رأسها ، لم تفهم مكنون عقله ، لم ير من كفاح ثلاثين امرأة لإطعام أسرهن أى مصدر للبهجة أو الفخر ، اكتفى بالتحديق إلى شعورهن وشفاههن وأردافهن وصدورهن النافرة وعيونهن الصافية ليعطيهن النصح بخبايا الوسوس الخناس.

تضحك "أمينة" بصفاء نية ، تمتلئ عيناها وجسدها نضارة استغلقت على فهمه ، ترفع الكراتين والأكياس بقوة ، تظهر مفاتنها للناظرين ، لكن لفتة واحدة منها كفيلة بإرجاع الغشاشين إلي مواقعهم غير آمنين.

أضحت "أمينة" علامة على طهر الدنيا في هذه المنطقة القاحلة ،وحاول موظف السلطات مضاجعتها وهو يتسلم نصيبه من الغشاش لعدم تحرير المحاضر ضده.

قالت غاضبة بعد أيقاف ماكينة اللصق: "اتلم ، لحسن أحرق روحك ، يا خرية".

الممرات الطويلة أوصلتهن إلى البحث خلف أسوار المخزن عن معنى إعادة غش المسحوق ، نسين الأحلام والطموحات ببناء نسيج مرهف للحب داخل قلوبهن ، وجعلتهن رائحة كراتين المسحوق حزينات رغم نضارة قلوبهن.

تداعب "ثناء" الطيور وهى تعمل وتعمل لتستكمل فرشها لتنعم مع خطيبها "سليم" سائق التوكتوك بعش الأمان ، تطبطب على "وطن" التي تركها زوجها تصرف على خمسة أفواهٍ مفتوحة ومات دون دفع إيجار الشقة المتراكم عليها.

يمتلئ قلب "أم مينا" التى التحقت بالمخزن بعد هروب الزوج لبلاد الغربة وانقطاع أخباره برائحة الأنوثة ، لم تتمكن من مد يديها للكنيسة للصرف على أبنائها ، لم تدخل بابها إلا يوم وفاة أمها ، فكيف تذهب للقس تطلب المن والسلوى ، قررت العمل لإطعام طفليها الوحيدين "مارسيل" و"مينا".

تقول "زوبة " التي تكسب من اي شيء "لأمينة": "كلنا بنكسب من الغش لا فرق فى المهن بين رائحة العرق".

يختلى صاحب المخزن دائما "بزوبة" التي تعلم مناطق ضعفهن ، وتستطيع أن تجعلهن يعملن عشر ساعات دون المطالبة بمليم زيادة عن أجرتهن ، ومع ذلك تحمل بقايا امرأة ، فحين تبكي أمامها "وطن" لتأخرها ساعة عن العمل لأن "خالد" ابنها صرخ من الألم واضطرت للذهاب به إلى الصيدلية ، ترفض إبلاغ صاحب المخزن الذى يعلم بطرق أخرى كل أسرار العاملات.

قالت "أمينة" في المشهد الأخير لصاحب المخزن: "لن تأكل عرقنا ، نعمل منذ شهرين بنصف أجرتنا ، لا تهمنا حججك ، شبعنا كلام ، أنت تكسب الآلاف من عرقنا ولا تمن علينا ، ستعطينا حقوقنا اليوم".

حاولت "زوبة" إثناءها عن موقفها حتى لا يطردها الغشاش ، تمادت "أمينة" وتجاوزت خيالها ، ونظرت إلى النسوة الثلاثين وصرخت: "أنتم معايا ولا معاها" ، خلعن ثوب الخوف وقذفنه في أكياس المسحوق ، ووقفن صفا واحدا ورددن: "لن نعمل قبل استلام حقوقنا".

في هذا الوقت تحول الوحش الذى اعتقدت "زوبة" بأن هزيمته مستحيلة إلى فسل كرتوني مهلهل ، وقال بانكسار وتراجع: "سأغلق المخزن".

ردت "أمينة": "ليس قبل تسلم حقوقنا" ، صرخ الغشاش: "المخزن ليس ملكي ، البضاعة أمامكم والمكن معكم ، كل شيء باسم زوبة" ، رددن بصوت واحد: "حقوقنا كوم وحياتك وحياة زوبة كوم".

تجمعن عليه ، وقيدوه مع "زوبة" ، و ألقهما في غرفة المسحوق ، وقررن تشغيل المخزن لإعادة أجرتهن المسلوبة.

اختارت النساء "وطن" و"ثناء" و"أمينة" لإدارة العمل بالأقسام المختلفة والتعامل مع جالبي المسحوق والأكياس والأحبار والموزعين،و استمر العمل لمدة أسبوع على أكمل وجه

كان اتفاقهن ألا يعرف الخفير شيئًا عن حبس الغشاش و"زوبة" حتى يتسلمن أجورهن كاملة ، لكن الخفير ظل يسأل ، ولم تجب إحدى النساء ، فطبيعي ألا يعرف أحد منهن مكان الغشاش أو سبب اختفائه.... لأنهن الممنوعات من الكلام عن أي أمر يخص الرئيس.

استأذن الخفير من "أمينة" ليذهب إلى منزله ليغير ملابسه القذرة ويأتى بملابس نظيفة ، لكنه ذهب للسلطات ليبلغ عن اختفاء الغشاش ، قلقت السلطات على حياة شريكها الذي يمدها بالشهرية ، تحركت مجنزراتها بعد تحرياتها ووشاية الجار الملتحي باحتجاز الغشاش و"زوبة" بغرفة المسحوق ، كان يتصنت عليهن ويراقبهن من فوق منزله العالي ليتفرج على صدورهن وأردافهن ليروي غضبه وكبته ويتمكن من نصحهن بدراية وخبرة.

دخلوا المخزن الواسع بمجنزراتهم ، لينقذوا المجرم.

وقفت "أمينة" و"ثناء" و"وطن" في تحدٍّ أمام عجلات الموت غير عابئات بالمصير .

أرعب الضباط إصواتهن المتحدية واصرارهن فقرروا دهسهن ليتسلموا الغشاش وخليلته آمنين كى يتمكنا من تشغيل المخزن ودفع المعلوم.

هرعت باقى النساء يلملمن جثث المتلحفات برائحة العشق ، وحرقن الأكياس والكراتين في "زوبة" والغشاش والمجنزرات والضباط.

ظلت ذكرى حرق المخزن وروح النساء الثلاثين عالقة بأذهان الجيران سنينًا طويلة ، غيروا نظراتهم تجاه عرق النساء اللائي ملئن الدنيا بالحب.

واستحققن عن جدارة رد الاعتبار ، واستحق الغشاش وعساكره الحرق ، هكذا قالت العجوز "أم مينا" وهى تحكى لحفيدتها عن مسحوق النساء الأصلى .

"الخروج الآمن"

وحيد زى اليمامة ، ناوى على كل شىء... متحاش... ناوى أخلص مشاكلى... ناوى...

لكن مفيش إرادة ، مفيش شىء يستاهل أضحى بيه... لكن علشان الأمل ، ناوى... بس مش عارف.

تروح الشقة ، تروح العيادة مع السلامة ، المهم العيال وقهوتى وصحتى ، يغور كل شيء ، تغور المشاكل ، المهم الأمل.

خايف أواجه نفسى بكل تركتهم ، خايف أوطى لحسن أموت ... عايز أكمل وحيد ، دون التزام... حر طليق زى اليمامة.

فاضل آه تانى... الأمل... ، فى ستين داهية... كل حاجة هينة مادام بنخسر بعضنا...

******

ماذا قالت لتفجر الحزن فى داخله ، الآن يتذكر نبرة صوتها القوية:"حقى فين ، ديونك هتخلص أمتى" ، غلطت ياسيدى ، حقى ضاع خلاص ، عايزنى أسيبه ، ماشى يا عم ، بس اللى ما بينا ميه مش دم.

******

اهدأ فاليوم الأخير مازال ينتظرك ، سوف تنال البغض عن جدارة ، لو عايز تحل بجد ، تحمل كل الوساخة اللى طالعة فى وشك ، تحمل ، هذا نتاج عملك خلال العمر الطويل ، اهدأ فالحرق سوف يأتى لا تتعجل ، خسفت نفسك بالتراب.. فهل يمكن أن تترك المجال الواسع ليمتلئ بأحد غيرك؟ تحمل ، لتمرالأيام السوداء ، تحمل فالكل شىء مهدد بالانكسار والزوال من تحت قدميك.

******

فيه شيء غلط أكيد فيك ، أمال يكون فين الصح ، فيه شيء غلط ضاع ، لازم ندفع كلنا تمنه ، فيه شيء ضاع والأمل باقى ، لازم نرجعه تانى ، شيء هناك باين بعيد ، لكن أكيد لازم هنمشى ، طريق الأمل واضح ، لكن أكيد غايب ، أكيد هندفع الثمن ونواصل بعيد عنك.

حاول أن تقف على قدميك مرة أخرى ، لن تستطيع ، بتنزل الشغل... ولا جبرينك على حكم المحكمة ، بتنزل الشغل... ولا خلاص... كرهت البُنا والناس... مش دى كانت رغبتك ... الراحة والخروج الآمن ، الآن بعد تحققها ، تعود غير راضٍ بمصيرك.

لن يثق بك أحد مرة أخرى ، معقول الخوف اللى زرعته بقلوبهم يحرق قلبك... ارجع ورجع لهم الأمان ، ارجع وصدق أنهم عيونك وأنت درعهم اللى باقى ، ارجع ومش مشكلة البغض ، ارجع يا خويا ولا خلاص خروجك الآمن أهم من روحهم.

طيب مين يرجع كرامتهم ، ويرد اعتبارهم ، نسيت غطرستك لحد ما الجتت عفنت وانتشلت ، نسيت سرطان كبدهم المخوخ ، وطبيخك الحامض ، مين يرجع شموخهم بعد ما شعاع عينك كسرهم ، ينسوا إيه ولا إيه يا بطل ، الزوج اللى راح ، البنت اللى هربت ، الولد اللى ضاع ، الشغل اللى واقف ، مين يدفع لهم فواتيرك المتأخرة ، علشان يقدروا يغفروا قسوتك ويقبلوا بخروجك.

نسيت الرقاب المقطوعة والخيانة وحرق الشقق والأراضي ، الأمل اللي فاضل بوجبة أخيرة متغمسة بالعرق مش بالشحاتة ، إزاى"مصطفى"ينسى رجله اللي راحت برصاص كلابك ، نسيت شرك وغربتهم علشان لحظة صفا تفضل مضللة على الأغصان ، مغطية عورات نسائهم المقهورة ، نسيت وهما فاكرين الضحكة اللي راحت ، مين يرجعها.

نسيت قهر"عزيزة"، وبسمة "مها" ، وندى"رقية" ، وعزة "وطن"، وشموخ "أم مينا"، وروعة "زينب"، وزهد "إبراهيم"، وأمل "حسن".

خلاص يا خويا نسيت ، قهرتهم على العيال اللى سال دمهم على الأسفلت بإشارة منك ، نسيت وقفتهم طول الليل والرعب مالى السما بسبب غدر عساكرك ، نسيت ولا محتاج لسة خروج آمن.

رد اعتبارهم أهم من حياتك ، روحهم السامية أهم من عمرك الباقي ، حالة واحدة ممكن يقبلوا طلبك ، وينسوا جرائمك ، أنك تتهزم مليون مرة وتضيع هيبتك ، ووشك يلحس تراب شرفهم ، وقتها بس ممكن يقبلوا خروجك الآمن.

" المحروسة"

(١)

يا أحبابي ، يا أبناء بلادي البعيدة ، كان زمان فيه بلدة اسمها"ست الحسن" ، بتعيش في الغلب ، عرف أبناؤها أسرار البهجة ، كانوا يسخرون من بعضهم ومن فقرهم ، يطلقون دعواتٍ للحبّ ويتواصلون مع الحيوانات والأجهزة والمباني كأنّهم وُلدوا معهم ، يحكون في أمسياتهم كل ليلة على قهوة"دعبس الحرامى"حكايات أبو زينبيه والهلافيت والقديسين.

*****

على غير موعد فوجئنا بقطار اللصوص يدهس"مينا"رمز البراءة ، أطلق والده صرخة في الفضاء مُطالبًا بعودة روحه ، انتشر الخبر ، نحو خمس وعشرين ألف رجل وامرأة اتفقوا من غير ما يشوفوا بعض على النزول للشوارع لإعادة روح البطل "مينا".

كان اللصوص وقتها يقتسمون الكعكة التي أنتجتها أجمل شجرة جميز ، قال أحد الخواجات بثقة في المذياع: كنز الدنيا الذي امتلكه البشر يكمن في زهرة الرضا التي تنتشر بين فروع الجميز.

نسى اللصوص في غمرة الأحداث أنَّ الكعكة من حق أهل البلد ، فقاموا بغدر باقتسامها دون أن يشموا رائحة الجوع التي انتشرت في بيوت "سيدة" بائعة الخضروات و"بدر" الفوال و"حمزة" القهوجي و"حسن" المزين و"علي" الحداد و"عبد السلام" الفران.

وصل الصراع بين اللصوص في هذه الليلة إلى أوجه ، سمع صراخهم أولاد الشوارع ، فأطلقوه نداءهم بالفضاء لفضح جريمتهم و تذوق طعم الكعكة ، آلاف البشر قّرروا النزول للمطالبة بحقوقهم في اشتمام روائح الأمان التي تنشرها زهرة شجرة الجميز ، أما أبناء ست الحسن فنزلوا لإعادة روح البطل"مينا".

علم اللّصوص بنزولهم للميادين ، فقرّروا الغدر ، نشرو فرق الموت التي أطلقت الرصاص لتفضّ انتفاضتهم وتقتلتهم.

هاجمو المعتصمين بالسيوف والبغال والرصاص والسيوف ، المجرمون الذين رضعوا الخيانة ، تراجعوا بعد إصرار الاهالي على المقاومة ، فقتلوا المئات في توحّش لكن أرواح الموتى ظلت ترفرف.

عندما شاهد كبيرهم العيون المشعة بالأمل ارتعب وقرر التحقيق مع بعض لصوصه ، وسلَّح جنوده المتمركزين في أحياء ست الحسن لوأد الانتفاضة، قاومهم أهل مينا وجيرانه بالعصي والطوب ، ليفجعوا قلوب لصوصه ويدهشوا الدنيا ويعيدوا الرعب لقلب زعيمهم.

في هذا الوقت يا أبنائي صرخ"حماصة" و"سمرة" و"توحة" المملوءون بالقوة لرحيل الذئاب الذين استولوا علي رحيق الكعكة وحدهم : يا بلدنا.. يا تكية.. نهبوكى الحرامية ، ردد كل الأهالي الهتاف دون أن يهابوا الرصاص الأعمى الذي قتل المئات ، وأصاب الآلاف ، فاعتقل الهمج مئات الاف بالجملة ، وأطلقوا الغاز المسموم وطلقات الرصاص المسقوف ، وامتلأت سماء أجمل المدن بالدخان الأزرق.

ونشروا فِرق الإجرام بالحواري ، وقال أحد ضباطهم وهو يقتل أخًا "لمينا": تلقّينا تعليمات عُليا بقمعكم ، يجب تنفيذ رسالة زعيم العصابة ، نحن عبيد المأمور ، لا تؤاخذونا إن قتلناكم !!

تحوّل حي"الشيخ أبو العلا"وسيدي أبو الفرج وماري جرجس لمعركة حربية ، فرق الإجرام تطلق الرصاص لإسكات الصرخات ، بينما تتجهّز فرق الدم الملثّمة بالعصي والخوذات ، لتفريق الجرحى الذين تجمَّعوا حول مستشفى الجلاء ، مرددين صرختهم المدوية بالإفراج عن روح "مينا" ، أوقفت الحجارة وصراخ الأولياء المتكرر هجوم الذئاب ، وقال "رضا الشحات" بسخرية: الشعب يريد شم الكعكة.

في هذا الوقت صرخت "أم مينا" قائلة للضابط وهو يعطى أوامره لإطلاق الرصاص: أين ابني؟ هل قتلتوه؟ ! لطمها ضابط مجاور على وجهها وهو يعطى إشارته ليحرق الأجنّة بمستشفى الولادة ، فعادت مصممة على الانتقام ، لحقت بالجيران المذهولين من أرواح أبنائهم المدهوسين بمجنزرات اللصوص .

ألقوا مئات الأهالي بالصحراء دون مياه ، أقاموا حولهم الأسوار الشائكة المحكمة ، كتبوا علي الأبواب منطقة عسكرية ممنوع التصوير أو الاقتراب ، دفنوهم في الصحراء ، دون أن يلفوا أجسادهم الطاهرة بقماش البراءة.

انتشرت النمور المختفية في زى الذئاب"بحي الألفي" مُعلنين الشر ، رافعين الشماريخ في وجوه أصحاب الورش التي أغلقت دكاكينها خوفًا من الغدر ، أطلقوا الغلَّ في مشهدٍ يعيد الدنيا إلى مرحلة الرعب ، وصلت رسالة رئيس العصابة ولصوصه إلى الأهالي"إرهاب الجميع – قهر الجميع – قتل الجميع" ، ردد والد"مينا" في المسجد الشرقي بعد إعلان أطباء المشرحة قتل البريء ، دعاءه للفتك برقبة زعيم العصابة ، قال باكيا: يارب لا تحرم عبدك من التهام رقبة اللص سارق أرواحك المخلصة.

أعادت"أم هاني" الشهيد صرختها:"من يعطيهم الحق في قتل أبنائنا؟ ونهش صدورهم؟ هل أخطأنا حين طالبنا بتذوق طعم الكعكة؟! وتساءلت بحسرة: أين رئيس عصابتهم الذي أعطى الأوامر لقتل ابني لألتهم كبده؟

وقيل يومها إنَّ زعيم العصابة هرب لمنتجع "جنة الشيخ" الذي بناه صديقه "أبو سالم" غريم "أدهم الشرقاوي" والشهداء الأبرار مدعيا المرض وفقد الذاكرة .

(٢)

مر الحي يا أحباب القديسين بأيام مريرة ، أذهل البشرية على قدرة أبناء"ست الحسن"على تحمُّل الرعب ، وتصديره لأركان العرش .

توقّفت عقارب الساعة ، تغيّرت احتياجات الناس كل دقيقة ، أطلق الأهل صراخهم المتكرر ليرحل اللصوص عن البيوت والشوارع والقرى ، قال"أبو عليش"لجمعهم القذر القابع خلف الميدان: هل اقتنعتم بضرورة رحيلكم؟ هل تأكَّدتم أنَّ بيننا بشرًا يمكنهم دفع أرواحهم ثمنًا لوقف سرقة أزهار شجر الجميز؟ أترغبون في ملء الحواري بمزيد من برك الدم ؟ هل آمنتم بأنَّ من حارب لخلود الأضرحة وشجرة الجميز الباهرة يمكنه طرد أرواحكم الشريرة وتطهير الشوارع من رائحتكم؟!

قالت"أم طه": ألم تكتفوا من مصَ دمائنا؟! ألم يُشبعكم توحّش ذئابكم بغرف القهر لإذلالنا ؟ ألم تتأكّدوا أنَّ مصيركم كآكلي لحوم البشر هو المصحات العقلية؟! وإعادة أرواحنا المنهوبة لنبنى من جديد"ست الحسن"عروس الدنيا.

قال "عادل" بصوتٍ عال:"هل يجوز لأية لصوص قتل الأبرياء العُزَّل في الظلام ، وإطلاق النمور الشريرة بالليل الحالك يا سفلة لينهشوا أفخاذ النساء؟ صرخ بالبرية ليرعب مبدعي التلصص وسرقة عرق الشقيانين؟

صرخت تحية : يا ظلمة من يعيد أرواح المفقودين لأحضان أمهاتهم ، بكت نساء كثيرات من الشرفات المفتوحة ، وقلن بأملٍ: ألم تتعلّموا أنّ قهركم نزع الخوف من قلوبنا؟ يجب إزاحة عرشكم حتى لو دفع أبناؤنا حياتهم جميعًا الثمن ، قال الدكتور"على": ألم تصلكم رسائل المقموعين بأنّهم لن يعودوا لديارهم إلا بعد هزيمتكم؟ أي جبن اخترق مشاعركم الميتة لتطلقوا المرشدين السريين بسكاكينهم ليقتحموا بيوتنا ويعروا نساءنا ؟ ألم تعلموا يا سفلة بأنَّ مصيركم هو مقلب النسيان؟ سواء رحلتم أم ظللتم ملتصقين بالكراسي؟

رغم كل هذه الدعوات خرجت عساكرهم بتوحش على المقيمين بالميدان يحتمون من البرد فى الخيام في تحدٍّ لرئيس العصابة الذي اجتمع مع مجلس اللصوص الفاسقين المستحوذين

وحدهم على رائحة زهرة الجميز وقرروا هدم الخيام وسحل الأبرياء ، وشوهدت عساكرهم وفرقهم يحملون البنادق والعصي والطوب ويهرعون ناحيتنا كالذئاب .

دهست أقدامهم نهود النساء ، قتلوا الأطفال ، أحاطت المدرعات وسلاح المظلات المعتصمين ، ودوى الرصاص فوق رؤوسهم ليخترق صدورهم ، وخرج ممثل زعيم العصابة على الجماهير في الصباح مفتخرا بتحرير الميدان من أعداء الوطن ، وهدد بإزالة شجرة الجميز وإطلاق الرعب بالمحروسة إذا تطاول الأهالي وفكروا في ملامسة أرض الكعكة مرة ثاني.

صرخ"حسين" أبو الشهيدً :"إنَّ دماء الأبرار سوف تنجب ملايين الشهداء الذين يملؤون الأرض والسماء لمحو شرهم من الدنيا.

تمنى"نور" المحامى مشاهدة جثثهم مفعوصة تحت أقدام المنتفضين ، لرفع شارة الانتصار بفخر.

قال "محسن" الكاتب : ألم تتعلّموا يا جبابرة أنَّ الأمل يهزم القهر؟ شاهدتم بأنفسكم ماذا فعلت فيكم الطلعة الأولى .

قالت الشاعرة رفيقة محسن: الفجر اقترب ، ستعلن الأرض زلزالها ، وتصطف الجموع لتنال القصاص العادل من دمائكم.

في هذا الوقت يا أحفادي ملأت الملائكة السماء والأرض ، ومدت أمهات الشهداء بالدفء أيام البرد ، غطّت أجسادهن أيام المطر ، خرجت الشمس وسط اللَّيل تعلن مصير منزوعي المشاعر.

(٣)

شاءت الأقدار أن يُعمى رب العالمين قلوب اللصوص ، استحقّوا بحفاوة أن يُطلق على زعيم عصابتهم أعمى القلب والبصيرة.

اتفقت العصابة المسعورة المجتمعة بالقصر المزين بالنسور المزيفة بقلبٍ ميت إعادة إنتاج الغل ، فقاموا في مشهدٍ رهيب مُتوحّش بخسةٍ باغتيال أحلام وأرواح آلاف الضحايا دون رحمة.

نفذوا مخططهم بنشر أخبار ملفقة عن طريق التجار والقوادين في الحواري يُرعبون أبناء ست الحسن ، تركوا أبواب أقسام البوليس مفتوحة ، ليهرب الضحايا بالجبر ، امتنعوا عن تأمين طرق الحجّاج ، حرموا الأطفال من تناول الغذاء ، أوقفوا مداواة ألم العجائز ، حرقوا حقن المسكنات ، في مشهدٍ أقل ما يُوصف بأنَّه خيانة لرحيق زهرة الجميز المذهلة.

أطلقوا الثعالب بأسلحتهم البيضاء والحمراء ؛ لينهبوا المحلاّت والبيوت ، ويجرحوا بعض الأهل بكرامتهم ، هرع الآباء نحو بيوتهم تاركين الشوارع لخوفهم من كشف عذرية بناتهنَّ ، استمرت أبواقهم الفاجرة في التغطية على خطة العصابة بالنهب وإطلاق الشائعات ، باتوا يُصوَرون الأمر على أنّه صراع شخصي بين"بحباحي" ، و"المرداعى" و"جعجاع" وأنَّ وراء المنتفضين مؤامرات للصوص دوليين ، وظهر زعيم العصابة في التلفاز يعلن بأنَّ هناك قُوى سكبت الزيت على النار لتحرق المحروسة وتحرمنا جميعا من رحيق أشجارها الخلابة .

في هذا الوقت اجتمع أبناء"مرقص"و"الحسين"أمام المعبد وأصروا علي دخول الميدان لحماية إخواتهم من الرصاص المسقوف .

كانت خطة العصابة تركهم يسيرون مبتهجين رافعين شارت صليب الحب على قلوبهم ، وقفوا أعلى مبنى تابع للبلدية يرصدون دموعهم ويذيعون كذبا أخبار سرقات وإجرام أتباع العصابة لنشر الفرقة.

عندما وصل جمع الناس أمام مبنى كبير يذيع أخبارهم الملفقة، فتح الذئاب النار على قلوب النساء الطاهرات ودهسوا جثث "دانيال" و"عالية" و"ثناء" و"حسن" بمجنزراتهم ، فخرجت أرواحهم تنير الطرق.

خرجت كلاب العصابة بإمبابة وأطفيح والبحيرة وأسوان وأسيوط ينشرون الفتنة ، ويقتلون القتيل ويمشوا في جنازته" ،لكن روح"دانيال"وإخوانه أحاطت شجرة الجميز الحزينة وأرض الجفاف المحيطة بجذعها ، وألقت على الحي ينابيع المحبة لتخلص أهالي المحروسة من الضغينة.

لم أنسَ مشهد القطط بهذه الليله وهي تسير خائفة في الشوارع باحثة عن مخبأ آمن بعد رؤيتهم المجنزرات تدهس البراءة.

انطلق مرشدو العصابة بوجوههم الشريرة فوق الموتوسيكلات يطلقون دبيب الخوف ، ليغلق الآمنون أبوابهم ، لاعتقادهم بأنَّ يد الإجرام سوف تطول حرمات نسائهم.

تحسّستُ رأس كلبة وهى تحمي أولادها مرعوبة ، نظرت إلى وجهي أضاءت قلبي ، سألتني برعب: متى ينتهي عهد الذئاب؟!

توقف أحد اللصوص بدراجته البخارية أمام"عبد النبي" الفاكهاني وهو يحمل كيس الفول عائدا لأسرته وصرخ في وجهه: كيف تجرأت وسِرت بأرض الخوف ، ألم تسمع عن حظر السير اوخروج النفس؟!

نظر"عبد النبي" لعينيه مرعوبا ، فأطلق الذئب طعنة في أحشائه من سكين حادة مقوسة ، وركب دراجته وتاركه غارقا بماء الفول وبقايا الخبز ، تساقطت دماؤه على الأرض ، جمع أرغفة الخبز المشبعة بالدم حالمًا بتوصيلها لأبنائه وزوجته ليتناولوا عشاءهم الأخير.

كادت خطة العصابة تنطلي على الأهالي بعد أن وعد رئيسهم بالقبض على الذئاب الذين لبسوا في غفلة زى عصابته ، وأهانوا الأهالي.

دخلت غرفتي وأغلقتها بإحكام ، أطلقت النور بكلِّ ربوع المحروسة ، استقبلته الأمهات في الشوارع والحقول ، العمّال والفلاحون والصيادون استقبلوا روح الأمل لحماية ست الحسن ، تنازل

اللص خانعًا عن بعض السلطات لذئابه متبرئًا من وعده بالقبض عليهم ، لكسب تعاطف المخدوعين باتفاق واضح بينهم على حماية حياة زوجته العاقر وتأمين ثروته ، قال بخسة: خدمتكم عمرا طويلا ، أتطبقون المثل الشعبي على كبيركم"آخر خدمة العز علقم" ، أنتم أنبل من ذلك يا أهل المحروسة.

سعد الناس بالحي ، مرّت الليالي العصيبة مملوءة بالأمل في تطهير الشوارع من رائحة الخوف ، خطب أحد السفلة مرة ثانية ليستعطف الناس ، رغم انشغال باقي العصابة بالتهام قلوب الصبايا.

كنت يا أحباب أولياء الله الصالحين على موعدٍ مع المدد ، وقفت وحدي وسط الحارة مُحاطًا بالعاشقين والمدّاحين والذاكرين أحفاد الأولياء الصالحين ، أغلقوا عيني لأسحب كل الطاقات السلبية من القرى والمدن وأقذفها بالبحر ، انكشفت خديعة رئيس العصابة الجديد ، عاد الناس لذاكرتهم ، ملئت الدنيا من جديد بالطاقة المبهجة ، أرسلها الأنبياء والأبرياء والشهداء إلى الأهل بكل الميادين والمزارع ، ليتسلّحوا بالمقاومة ، تحملوا القهر سنينًا طويلة لنيل الأمانة التي ضحّى أجدادنا الأوائل من أجلها.

ابتسم"عيسى" و"طاهر" و"وليم" و"زينة" و"هناء" و"أميرة" قائلين: لن يضيرنا أن ننتظر ثلاثين عاما أخرى لنتخلص من بقايا الذئاب.

(٤)

تحسّست مكانًا آمنا بكعكة الميدان وقررت النوم ، جاءني سيدنا "الخضر" و"عيسى" و"موسى" ، ورافقهم "السيد البدوي"و"إبراهيم الدسوقي"و" عبد الرحيم القناوي" و" مارى جرجس" ، والإمام الحسين ، والسيدة"زينب" ، ليبلغوني الرسالة ، فأطمئن قلبي .

لكن أحداثًا مقتلة وقعت في الليلة التي أعقبت اعتذار الذئاب الكاذب ، استيقظ الأهل في الأحياء والمدن رافعين السكاكين ، نزلوا الشوارع باحثين من جديد عن الأمان المفقود ، دعا ممثل العصابة الجديد بالتلفاز بعد ارتدائه قناع الزعيم الأهالي الرجوع إلى المنازل؛ لأنَّ الأمان على أكل العيش في خطر ، اختفت السكاكين والأسلحة مرة ثانية ونشروا الخديعة لإرهاب الناس ، هددوهم بفجع رجولتهم وتعرية فروج نسائهم .

اعتقد اللصوص أنّهم نجحوا في قبول الأهالي الهزيمة ، أعادوا ترتيب الخطة لاستعادة الزمام ، انطلقت المجنزرات تحتل النواصي ، تآمروا على الأطهار بالميدان مرةً أخرى ، لعبوا مع الخونة لعبة "التفاوض والحوار"وانتخابات الطرابيش ، تركوا الميدان كمنتجعٍ للتنفيس أيام الجمع والآحاد ، لتصوير وجوه آباء وأمهات الشهداء كعلامة على مرحلة الدم ، وأداروا بخسة من جديد دفّة البلاد تحت دعاوى تيسير الأعمال والعجلة الدوارة والمعزة المحتارة.

طبّقوا خطّة استعادة القهر عبر وجوه بارزة عاهرة متهمين"أم مينا" ووالد"دانيال" بإثارة الفتنة ، تمكّنوا من تقسيم الحواري ، وأعلنوا أنَّ ملايين الصامتين تريد أن يظل نظام اللصوص قائما لاستمرار الظلام الدامس ، لعبوا بورقة بالية كتبوا في آخرها"نعم ولا" ؛ ليشغلوا الآملين بتجميل ست الحسن بالحيرة ، وركَّزوا من جديد لشم رحيق ثمار شجرة الجميز وحدهم.

أعادوا الجوع من جديد على يد لصوصٍ ادّعوا أنّهم أولاد الحي ، جاؤوا بهم من خلف الميدان، وتلقى الصامتون الخدعة الجديدة بصبرٍ فاق حدود تصور النبي"أيوب".

قال سيد السائق الذي نام بالبيت خوفًا من سرقة سيارته على الطريق الدائري: لم يكن أي شيء يهم حتى ضياع العمر برصاصةٍ طائشة ، وصلنا لليأس المعجز بتركهم يرتعون ، يجب ضبط اللصوص لأعمال السرقة للخروج من المأزق وإعادة إنتاج الجميز ، انكشف خداعهم ،

نهبوا البلاد وسرقوا أرواحنا ، لكن لابدّ من تشغيل العجلة الدوارة ، لنحصل على الخبز المسموم بدماء"مينا"و"دانيال"!!

الشيء الذي لم يفهمه اللصوص الذين يرتدون كلّ يومٍ أقنعةً جديدة ، أنَّ الأهالي خرجوا من القمقم ، ولن يتمكن أحد من إعادتهم ، تنفسوا الهواء النظيف لدقائق ، هربت فرق البطش واختفت عدة أيام أمام هديرهم ، هلعت قلوبهم المتوحشة ، قال الطعمجي بدهشة على المقهى كأنه يحلم: نعم الذئاب ارتعبت من أغانينا.

سألت نفسي يا أحباب الرسول: من يعيد انبهار الناس بقوتهم مرة أخرى؟ من يمكنه ذلك؟! إنّها بروفة الأمل للخلاص.

أحضر زعيم العصابة القوادين وجلسوا يومين دون نوم للاتفاق على الدور الجديد لأبناء بيوت الدعارة ، أسفرت الخطة الجهنمية بتعليق الصور في الشوارع وضعوا صناديق بالمدارس ، استفتوا الناس على أقبحها ، ملأوا شوارع المحروسة بالعلامات والرموز الغريبة ، ارتفعت أسهم الكنكة في بر المحمودية ، وانخفضت أسهم العربة الكارو بحي بولاق.

علق أبناء بيوت السر بواجهات النواصي صورهم لاختيارهم كأمناء على مصيرهم بدلا من العصابة ورئيسها الأبدي.

جيشو أهالي المحروسة الآملون في النوم دون نهش للخروج بزفة مزيفة أياما وشهورًا ، لينال زعيم العصابة الخروج الآمن بملياراته وقصوره دون أن تفتك أسنان أمهات"عاطف"و" سلوى"و"زخاري جثته ".

كانت الخطة أن يعلن مولد الصناديق بحماية رجال محايدين ربطوا على رؤوسهم كوفيات رسم عليها سيف وميزان ، انطلق الراقصون في الجرائد يذيعون فرح المحروسة بعرس الصناديق وتفوق أبناء بيوت السر على خصومهم... تركوا بخسة متعمدة المجنزرات تسير نحو الميدان لتخنق المئات من المعتصمين.

كان أجمل الشهداء شاب صغير يدعى "حرارة" فتح صدره لمواجهة رصاص مجنزراتهم ، صوبوا بنادقهم لعينيه ، وفقعوا عيون مئات الصبايا ، لكن أبناء المحروسة أصروا على القصاص هتف أولاد الشوارع بفخر : يجب أن نهدم الكعبة التي يدير منها القوادون و السفلة أمور النهب ، كانت السلخانة الحصينة تقع بالقرب من الميدان ، مات العشرات وهم يرشقون أتباع السفلة بالطوب لمواجهة رصاصهم الغادر.

دخلت المجنزرات مرة أخرى الأحياء ، خوفًا من انتشار النور ، أحاطت مبنى السكك الحديدية ، لوقف نقل روح المقاومة عن طريق السائقين والكمسارية للبلاد التي يمرون عليها ، تمركز الذئاب بالحارات لوقف تواصل الأحبّة ونشر الأمل.

لكنَّ الأولاد الذين عرفوا الحب ، أعادوا نشر دروس الصمود التي تلقونها فى الكتاتيب والحضانات والمقاهي والمزارع والورش ليكسروا أنف الزعيم.

سمع الأهالي رسالة السماء: الشرارة انطلقت لا يستطيع أحد وقفها ، التليفون يمكنه نقل النور إلى أرجاء الحي.

خرج الممثل الجديد للعصابة محدقًا في الأهالي من وراء شاشة التلفاز قائلاً: فهمنا الرسالة ، سنغير لصوص تدوير العجلة بسحنة جديدة أطلقوا عليها" حكومة تفسير الأحلام" ، جاؤوا بكهل من الترب ، سموه رئيسًا مؤقتا لإبداعه في النفاق !! اندهش الناس من جبروت رئيس العصابة الذي يرفض النزول عن العرش رغم الدم الذي اغرق الشوارع .

في هذا الوقت غنَّت"ست الحسن"أغنية سمعها الفلاحون والصيادون والحدادون والبقالون ، صحا الناس من غفوتهم ، تمتعوا باليقظة ، أيقنت بتحقق حلمي وتوصيل رسالة القديسين ، صرخ بجواري"فتح الله"العامل بحي الجمرك: لم يرحلوا ، يغيرون ظلمهم بوجوهٍ وأقنعةٍ مُزيّفة؟! نحتاج شم رائحة ثمار شجرة الجميز لتقينا شر العوز وألم الحاجة يا سفلة !

(٥)

زرت بالأمس ضريح القديس"سمعان الخراز" بمنشية ناصر فامتلأت بالامتنان والشجاعة ، طبطب على ظهري ورأسي وقال بهدوء الفرسان الذين نقلوا الجبال ليحموا المحروسة من غزو البدو: لا تخشَ مخلوقًا يا بن المسيح الحي ، واصل وبلغ رسالتنا .

هدمت فرق الدم مُدَّعية حماية نسيج"ست الحسن"أضرحة الأولياء الصالحين قطعوا أذن وألسنة الناس ، حلقوا شعور البنات ، تحسسوا فروجهن وصدورهن ليفجعوا عذريتهن ، قتلوا المريدين بعد ادعائهم باختلافهم حول الإيمان ، نشروا دعاوى الفرقة لتقسيم البشر إلى نصراني ومسلم ، نسوا أنهم جميعًا أبناء دمٍ واحد اسمه أرواح أولياء الله الصالحين ، أدخلوا في قلوب البعض روح المهانة والتصلّب.

كانت ست الحسن تعلم السّر ، غنت أغنية الممر ، اجتمعت حولها الملائكة ، ليعيدوا غرس الأرض بنبات التسامح والتحدي ، تذكّر الأهالي زهرة شجرة الجميز ورائحة البطاطا المشوية ففهموا خداع الذئاب ، ردّدوا جميعًا وراء ست الحسن: مسلم ومسيحي إيد واحدة ، بلادنا أجمل البلدان ، عيوننا أنقى العيون ، حقولنا أجمل الحقول ، لا يفرق"الله" بين زراعيها بسبب الإنجيل والمصحف والتلمود.

تحسّست العصابة الخطر ، أطلقوا ذئابهم وثعالبهم مرة أخرى ، وضعوا المُجنزرات بمداخل الحي ، منعوا سقوط العرش ، تمادوا في نشر الخداع بادّعاء حمايتنا من الفوضى ، خانوا العهد والأمانة بإعادة نظام اللصوص عبر كبير القوادين خبير سرقة مال المسلمين والمسيحيين والكفرة بحداقة ودهاء لم يتمكن أحد من وصفه الحقيقي على مر التاريخ.

منع الأطهار من الأولياء الصالحين دخول القواد لقلعة العصابة ، وطالبوا بالقصاص ، وأحاطت البنات الأطهار المبنى بشعورهن الزاهية ، منعوا ممثل العصابة من تدوير العجلة التي تفرم آباءهن وأمهاتهن ، اتفق ممثلو بيوت السر المشغولون بصورهم المعلقة بمداخل شوارع و حواري الحي على حرق ملابس الفتيات الداخلية ، وتعرية فروجهن وصدورهن بالميدان ، لكسر اروحهم ، فجرو بتوحش جسد الشيخ "عماد" والدكتورة "هالة" والمهندس "بطرس" ليدخل باب

القصر ممثل جديد للعصابة ليدير العجلة لتنتج شجرة الجميز ثمارها ورائحتها الذكية ليشموها هم وحدهم.

تبرم أحد القوادين وقال: يجب حرق المجمع الذي يحوي ذكرياتهم ويخلد نهرهم ويجعل الكفرة فخورين بأنفسهم ، يجب قتل المزيد منهم ليعرفوا قدرهم ، أولاد الحواري الحاقدين البلطجية الصيع كيف يمكنهم مقاومة الدبابات والبنادق والغاز المميت؟ انبرى أحد أفراد العصابة: يجب أن تكون الرسالة قوية ليفقدوا الأمل ، نفذ وصيته أحد القوادين الجدد بعد إطلاق لحيته ودهنها باللون الأصفر الغامق ليتشبه بالقساوسة وقال في ختام لقاءه : يجب قتل اراوحهم حتى تعود هيبنا ونستمتع معكم بالسرقه.

طبطب عليه رئيس العصابة الجديد وقال بزهو: تستحق الانضمام لمجلسنا الموقر يا شيخ بقدونس .

تسلح أبناء القديسين بروح"مينا" والشهداء الأبرار وأوقفوا حرق المبنى ، فقتل العشرات منهم وهم يقاومون.

قالت إحدى بنات المحروسة: لا يهم أنهم جروا "غادة" عارية وسط الميدان ونشروا صورتها ليرعبوا الأمهات ، لا يهم ، خلعنا ثوب الخوف ، نحن أبناء أولياء "الله" الصالحين ، لسنا أبناء بيوت دعارة كالمشغولين بصناديق الصور الملونة التي يحميها رجال مهزومون ربطوا على رؤوسهم كوفيات مرسوم عليها شارة الميزان والعدل.

نسى القوادون الملتحيين أرض المعركة ، وذهبوا ليلمسن أردافهم زعيم العصابة الجديد ليسمح لهم بتشمم رائحة الكعكة وتذوق فتافيت شقا وعرق أبناء المحروسة.

قلت لنفسي مبتئسًا رغم امتلاء السماء بالأمل:"كُتب عليكِ يا ست الحسن أن يتآمر ضد مجدك الذئاب والقوادون وأسيادهم.

خلال هذه الأيام سمعنا أنَّ حكام الإمبراطوريات البعيدة يدرسون خّطة لحماية نظام العصابة من السقوط ، ليستمر الظلام يغطى جرائم السفلة وسلب الأهالي إنسانيتهم.

راهن الملائكة على صمود روح أبناء المحروسة الذين قدّموا أرواح الشهداء فِداءً للخلاص ، وقف زعيم العصابة الذي يدير الكون والدنيا مذهولاً من مشهد الملائكة بعد قرارهم بحماية شجرة الجميز المبروكة قائلا: نحن مع العصابة اي عصابة المهم ان تحقق الاستقرار لنهبنا.

(٦)

مرت ست الحسن بمصائب كثيرة وتمكَّنت من تجاوزها ، حكمها جبابرة من الفرس والرومان والهكسوس والعرب والمماليك والإفرنج والإنجليز والسلاطين الطامعين في كنزها لكنّها قهرتهم بأرض الجفاف التي سوف تعلن سرها بعيد الغطاس القادم.

كان المشهد مهيبًا ، ادعت ست الحسن المرض ، سقطت أوراق شجرة الجميز وجفت مياه النهر والآبار ، خرجت العصابة وحلفاؤها أبناء بيوت السر عن بكرة أبيهم للحواري يطلبون رغيف خبز ليظلوا أحياءً ، توقف الزمن بين قصورهم وبيوتهم ، تساقطوا واحدًا تلو الآخر ، تركوا دباباتهم ومجنزراتهم بالشوارع دون سواتر ، دخلوا الأحياء ليسلموا ذخيرتهم مقابل شربة ماء ، خلعوا ملابسهم ، ومشوا عرايا وسط الحي ، زفهم أطفال الشوارع بهتافات دوت عالية بالسماء ، أصيبوا بالطرش والعمى ، لم يهمهم إلا النجاة من الموت المحقق والخروج الآمن ، ألقت أرض الجفاف عليهم الوحشة والغربة سنينا طويلة.

نبتت على جذع شجرة الجميز العجوز أشجار جديدة وارفة عجيبة ، تواصل الأهالي مع أرواح الشهداء ، أنزلت في قلوبهم السكينة والحب ، روت أجسادهم بماء الفل ، ظلوا مبهورين بنمو الأعراف الجديدة ، أبدعت ألوانًا خلابة ، نشرت رحيق السمو ، قالت أم"مينا"بحب: ستتمو الثمار لينعم الأبناء بتذوق أطعم ثمار جميز خلقتها الدنيا.

كان أحد القوادين مختفيا بوسط الحي مدعيا حمل الجميل والولاء لشجرة الجميز ، كان الأخير الباقي بقائمة اللصوص ، حرك بدناءة الفرقة الأخيرة، أشعل الحرائق ، أدار معركة النفس الأخيرة باقتدار ، كاد اللص ينتصر لولا بركات أولياء"الله" الصالحين التي جعلته أضحوكة الخلق لتكذيبه نبوءة أرض الجفاف وخيانته للعهد ، استحق الموت عطشا دون رحمة وسط هدير وصرخات النساء.

شاهدت روح الشهيد بجواري تحتضن إحدى الأمهات المدهوسة برصاص السفاح ، اغتالت بنادق القناصة القوادين عيون وقلوب أولاد البلد ، قيل إنَّ الباغية الجديد استوردهم من خارج الحدود ، ليكسر روح الأبرياء ويفتك بعزيمتهم ، لكن "سلوى" الشهيدة ضخت الروح في الموتى ، ومسحت بدمائها على وجوههم ، وسجدت على الأرض لتوقظهم.

رايتها بكامل بهائها فجريت وراءها خائفا عليها من الرصاص المسقوف ، أمسكت يديها برقة لنهرب من البطش ، نهرتني قائلة: سوف نستمر في المقاومه حتى يرحل الوغد الأخير ،

فعاد الموتى مرة أخرى تلبية لطلبها لشوارع قصر العيني وماسبيرو ومحمد محمود والشيخ ريحان وحي الأربعين وميدان أبو العباس بعيونهم المملوءة إصرارًا وتحديًّا.

وانتشرت رائحة الثمار الجديدة لفروع الجميز النابت فوق أرض المعركة ، تجمَّعت الملائكة لمداواة الجرحى وتطهير ست الحسن من الخوف ، أطلقوا صرخة الحب ، ارتدَّت رصاصات الغل والرعب إلى قلوب فرقة الوغد الأخير.

سألت نفسي: من يمكنه ارتكاب هذه الجرائم سوى عصابات منظمة تابعة لأجهزة فاجرة تتحكّم في كل الدنيا؟!

انطوت قلوب الأحبة على بعضها غير عابئة بسؤالي الساذج ، ونبتت بأرض الخوف ملايين الزهور الراغبة في عشق الحياة ، وهاجو في الارض يبحثون عن اي لص ليحرقو كبده .

سمعت الصبايا يدندنون بموسيقا رائعة انتشرت رائحتها فوقنا ، أحاطتنا بسحب باهرة مضيئة ، ملأوا الأفق بالنور ، عادت روح "مينا" و"عوف" و"غادة" و"رقية" و"أمل" و"على" ، استرد الجميع الذاكرة ، حكوا عن رضا الأجداد ، واستشاط القلب الميت بجُثث المجروحين لينتفض ، وبدأ النبض يعود إلى اجساد الشهداء.

أحاطوا ميادين ست الحسن بدمائهم ، ووضعوا دمائهم المتجمِّدة فوق بعضها لحمايتهم من رصاص الاوغاد ، أرعب وقوف الموتى بقايا العصابة ، تهيأ لهم أنهم عفاريت ، لبس الشهداء العائدين أرواح جدودنا الأوائل ، خرجوا للذئاب والثعالب ليلاً كجنون زرق ، خلعو ملابسهم الملطَّخة بالدماء ، وصرخوا في البرية لاعادة البراءة ، وأنزلوا الرعب في عرش الوغد الأخير.

انتشرو بالميادين وزرعو الأمل ، ملأوا الأحياء والقرى بالبهجة ، وأعلنو بالحواري والحقول سر اللوح المحفوظ الذي كتب أعلاه " المحروسة عشق الحياة" ، تسربت رائحة دماءهم التي نزفت بطعنة الوغد الأخير الي محطّات ضخّ المياه ، شرب الاهالي "مية الحياة" المتدفقة بنشوة من الحنفيات ، تشمموا عبير الشهداء ، أحسُّوا ببهجة القلب ، أمسكوا جميعًا التليفونات ، اتصلوا ببعضهم البعض يهنئون أنفسهم بالانتصار.

شربوا خلطة الحب التي عجنت بقهرهم ودماءهم ، استطعموا مذاقها ، ، اختلطت كلّ مياه الدنيا برائحة دماء "مينا" و"علي" فقام ابناء المحروسة فخورين ، وجروا في الشوارع ، وروو شجرة الجميز، وقالوا بحبٍّ: لابدّ أن نحمى زهور البريئة الخالدة.

قبل موت الوغد الأخير تمّ إعادة ما استولت عليه العصابة من الأماني والمشاعر ، وعاد أطفال الشوارع إلى بيوتهم ، والثكالى إلى ديارهن ، وبائعات الحب لأحضان محبيهم ، ووقف الوغد مكتوف اليدين وهو البالغ من العمر أرذله يجاوره بقفص الاتهام كل من مس أبناء الحي بالسوء ، يسمعون خبايا مجازرهم ، وكتب أمين سر الجلسة ستمائة مليار صفحة تحتوى على جرائمهم ، كل صفحة عبرت عن أبشع القصص لسلب البشر كرامتهم ، طلبوا الرأفة والخروج الآمن ، لم تهتم محكمة الشهداء بعقابهم بقدر ما دوَّنت كيفية تحوَّلهم إلى ذئاب متوحشة التهمت براءة الناس ، فحكمت بإيداعهم المستشفيات لعلاجهم من الجنون.

انطلق الأهل مملوءين بالتسامح وراء النور الذي ظهر بسماء الدنيا ، تلحفوا بأرواح الشهداء والوجوه الرائعة التي حرمت النظر والنطق والسير ، استعادوا أحاسيسهم وسجدوا بالميدان لشجرة الجميز العجوز .

يا أحبابي يا موحِّدين ، عاشت الناس أيامًا وشهورًا وسنينًا طويلة في ماضي هذه البلاد ، ينتظرون رحيل عصابة الاوغاد ، وحين انطلقت الشرارة ، نزع الخوف من القلوب ، وشعر البشر بأرجاء الأرض برحيق الأمان ، فأعادوا زراعته مرة أخرى بأراضيهم ، أثمر أشجارًا من الجميز كثيرة ومبهجة ، نشرت روائح المودة بين الأحياء ، وملئت حياتهم بالكفاية ، وحولت الكون الى قرية للعشق .

الوراق

٢٠١١



الخروج الآمن

كما يشهد الحركة الثقافية والحركة الفلاحية أيضا وإن ينتم إلى، فاعتمد قلم أدبي فلاحي، حضر ودافع عنهم بعد أن مارس لسنوات طوال العمل في العديد من المهن المرتبطة بالزراعة .وهو الأديب كرم صابر وهي محملة بوجدان ومشاعر يدي الفلاحين معنونا بهمومهم

الأستاذ/ عريان نصيف
كاتب ومحامي وأمين اتحاد
الفلاحين المصريين

كتابات كرم صابر هي سرد مكثف يكشف عن وعي ومعرفة وكم هائل من المناقشات". هو ليس حريصًا علي الحكاية بقدر حرصه علي الكتابة اللغوية والكتابة التصويرية. ويسيطر علي لغته ولغة شخوصه، يعالج اللغة بشاعرية شديدة خاصة، وثمة صعوبة خاصة في تحديد من المتكلم يصنع تجريد سردي يحول إلي ما يسمى بـ"القناع". قدرته تقاس بالقدرة علي الالتفات السردي والتلاعب بالضمائر.

الأستاذ الدكتور/ مدحت الجيار
أستاذ الأدب العربي
كلية الآداب جامعة القاهرة

المتابع والقارئ لكتابات كرم صابر يكتشف امتلاكه لرؤية فكرية، اتخذت عمدا وشكلا معينا للكتابة الإبداعية، وتستند على مزج القضايا الفلسفية، والأيديولوجيات، من خلال المهمشين اجتماعيا، وسياسيا، ونفسيا أيضا. هذه النتيجة هي التي دفعتنا في البداية لسرد خطوط مسيرة الكاتب والروائي كرم صابر، ومن ثم نؤكد انطلاقنا في قراءتنا لإنتاجه القصصي.

الأستاذ/ مدحت صفوت
كاتب وناقد أدبي

الغلاف: مصطفى نوح